

الإطار التاريخي لمحددات بناء الشخصية العراقية

دكتور فاروق ناصر حمادي الراوي
أستاذ اللغات القديمة والآثار

تقديم:-

المقصود بالشخصية هي مجموعة الخصائص والمميزات النفسية والسلوكية للفرد والتي تتفاعل بالضرورة مع الخصائص المماثلة لبقية أفراد المجتمع وصولاً إلى الموقف الاجتماعي العام من ظواهر الحياة وأنشطتها المختلفة.

ولموقف الفرد أو الجماعة في حدود زمنية ومكانية محددة، دور مهم في رسم خطوات التطور العام، سواء كان التطور على الصعيد الاقتصادي أو على صعيد بناء العلاقات الاجتماعية.

ولا تخلو المجتمعات القديمة منها أو الحديثة من مواقف فردية إستثنائية سلبية كانت أم إيجابية، غير أن المهم في دراسة الشخصية ضمن إطارها التاريخي، أو الأبعاد التاريخية التي حركت دائرة الخصائص الأساسية للشخصية، وقد تكشف بعض هذه الخصائص عن ترسباتها في أعماق الإنسان لحد الوقت الحاضر.

أما الإطار التاريخي أو الأبعاد التاريخية، فنعني بها مجمل حركة الأحداث التاريخية أولاً، والمؤشرات الأساسية في هذه الحركة ثانياً، التي تركت بصماتها الواضحة على الملامح الاقتصادية والاجتماعية والفكرية للمجتمع، وهي الملامح التي تحدد بدورها الأطر الرئيسية لبناء الشخصية.

والتاريخ، هو نتيجة الفعل الإنساني المشترك في الأطر المكانية المحدد بظروفه المادية وأحواله الجغرافية والمناخية، وفي حدود زمنية معينة. ومع تراكم معالم عامة لحركة التاريخ، يبدأ الناس فرادى وجماعات، وهم الذين يصنعون التاريخ، يستقبلون تأثيراته ويتفاعلون معاً، حتى أنها تصل الى درجة الممارسات الاجتماعية أو السلوكية للناس.

وفي ضوء ذلك تتحقق الفائدة المرجوة من دراسة التاريخ بوجه عام، بمحاولة الكشف عن الأطر التاريخية التي تحدد بناء الشخصية.

ولعلها تكون أشدّ وقعاً بالنسبة للشخصية الراقية، حيث يكتنز تاريخها الطويل ملامح ومؤشرات توصلت عبر الحقب الطويلة الى درجة الاندماج أحياناً بين الشخصية وبين الموروث الحضاري المتمثل بالمبتكرات والعطاءات ولا سيما الفنية منها.

وتقسم رحلة العراقيين الطويلة الى مرحلتين رئيسيتين هما:-

- أ- مرحلة عصور قبل التاريخ، أي ما قبل التدوين.
- ب- مرحلة العصور التاريخية، أي بعد إبتكار الكتابة.

ويعد التدوين، أي بدء إبتكار الكتابة، حدثاً متميزاً في تاريخ الإنسانية، فقد كان من نتيجته بالدرجة الأساس، ربط ماضي الإنسان بحاضره، وغدت التجارب والخبرات والأفكار، حلقات متسلسلة في ذاكرة الإنسان وضميره وعمله. ولهذا السبب أيضاً، غدت الخطوات التطورية في مسيرة الإنسان الحضارية، بعد إبتكار الكتابة، أسرع كثيراً مما كانت عليه في عصور ما قبل التاريخ.⁽¹⁾

وعلى الرغم مما حققه علم الآثار من تقدم كبير، بحيث إستطاع أن يسبر أغوار الماضي البعيد للإنسان ويطلع على كثير من تفاصيل حياته ونشاطاته وحتى جوانب من أفكاره ومعتقداته، لكن معرفة الآثاريين بتفاصيل العهود التاريخية أكثر شمولاً وتفصيلاً، خاصة وأن العهود التاريخية تُقدم المزيد من الوثائق المدونة التي تعالج شؤون الحياة، هذا فضلاً عن المخلفات الأثرية.

وتطلق تسمية عصور ما قبل التاريخ عادة على أدوار تاريخ الإنسان في فترات العصور الحجرية القديمة والمتوسطة والحديثة، وتمتد هذه العصور في عمر الزمن قرابة مليوني عام أو ما يزيد عن ذلك...

وكانت رحلة الإنسان خلال هذه الحقب الطويلة مليئة بالتجارب والخبرات التي نجمت عن كفاح الإنسان المرير من أجل الحياة الأفضل ودرء شرور الطبيعة والحيوانات المفترسة. ومع أن معلوماتنا التفصيلية عن نشاطات الإنسان، وبخاصة الفكرية وإنعكاساتها في سلوكيته ونفسيته، محدودة جداً؛ لكن سعي الآثاريين الحثيث نجح في تعيين جوانب من أبرز النشاطات الإنسانية القديمة هذه، ومنها الآتي:-

1- العمل:

ونستهل هذا المبحث بالمثل الرافدي القائل:-

"الذي لا يتعب (يعمل) لا يملك شيئاً"⁽²⁾.

إن الميزة الأساسية التي جعلت من الكائن الحي الذي نعرفه بإسم إنسان، مختلفاً عن سائر الكائنات الحية الأخرى، إنما تتمثل في العمل، ونقصد بالعمل هنا بذل الجهود العضلية والفكرية ممتزجة في الموارد الطبيعية المتوفرة وصولاً الى صيرورة جديدة لهذه الموارد تجعلها طيعة في تلبية حاجات الإنسان. وإن أبرز صورة للعمل الإنساني ونتاجه هي مجاميع الآلات الحجرية ذات الحجوم والأشكال المختلفة التي يعثر عليها الأثاريون في مواطن سكنى الإنسان القديمة.

وربما يشترك الإنسان القديم مع عدد من الحيوانات في القيام بأعمال معينة، ولكن جوهر العمل الإنساني يكمن في قدرة الإنسان العقلية على تطوير مستلزمات العمل والوصول دائماً الى صيغ ونتائج جديدة، وهي الحالة التي هيأت للإنسان فرص التقدم وميزته عن سائر الكائنات الحية الأخرى.

2- الطابع الاجتماعي للعمل:

ويبرز بجانب العمل، النشاط الإنساني الجماعي المشترك، وهي الصيغة التي وفرت الإمكانيات أمام الإنسان للقيام بأعمال كبيرة ومهمة من أجل توفير مستلزمات التطور المادي للإنسان كما

أن طبيعة العمل المشترك تهيئ فرص تفاعل الخبرات والتجارب وصولاً الى الأشكال المتطورة في إنتاج العمل.⁽³⁾

3- تقسيم العمل:

إن معظم مواقع العصور الحجرية القديمة المكتشفة في العراق وفي أمكنة أخرى من منطقة الشرق الأدنى القديم، توضح تعايش مجاميع صغيرة من الناس سوية في حدود الكهف الواحد، يتعاونون في إنجاز المهمات المختلفة لمستلزمات حياتهم وأمنهم، كما أن شكلاً من تقسيم العمل على أساس الجنس كان معروفاً، فالأعمال التي تتطلب قوى عظيمة كانت من نصيب الرجال، وأبرزها أعمال الصيد أما بقية الأعمال، وبخاصة إعداد الطعام وصناعة الآلات ومعها جمع الثمار من المنطقة القريبة للكهف، فكانت من أعمال النسوة. وعلى العموم، فإن تقسيم العمل بسبب الجنس كانت محدودة وضيقة دوماً في تأريخ المجتمع العراقي القديم، وهي لا تتعدى نشاطات الذكور العضلية التي تفوق النساء، وقدرة الرجال على متابعة الأعمال باستمرار، بينما تضطر المرأة للإعتكاف عن العمل لفترة ليست بالقصيرة بسبب الحمل والرضاعة.⁽⁴⁾

إن شظف العيش وقساوة الطبيعة ووحشية الحيوانات المفترسة وغير ذلك من صعوبات فيما يمكن أن نطلق عليه بالتحدي الطبيعي، قوبل من لدن العراقيين القدماء بالإستجابة الكاملة، حيث بذلوا جهوداً إستثنائية من خلال العمل المشترك لتوفير مستلزمات حياتهم، كما وضعوا بذلك أسس تطوير حياتهم المادية والفكرية. ويمكننا أن نستشف أسس بناء الشخصية العراقية من واقع الحياة والعلاقات التي أفرزتها مسيرتهم خلال هذه الحقب المتعاقبة، ومن أبرز سماتها حب

العمل ونجد في الأمثال العراقية القديمة خير تعبير عن أهمية العمل:-

- 1- "الرجل القوي، الذي يعيش على ما يدفع لأتعبه، والضعيف يعيش على ما يدفع لأتعب أولاده"
- 2- "هل يحصل سرير القصب على ثمن قصبه، والمرعى على ثمن حشائشه"⁽⁵⁾.

4- الروح الجماعية:-

والروح الجماعية وما تخلقه من خصائص الإيثار وروح التضحية والتعاون وبذلك فهم يوجهون خطواتهم لتحقيق الأهداف الإنسانية السامية التي نجد صداها واضحاً على لسان بطلهم كلكامش عندما تعاضد مع خله أنكيديو لقهر خمبابا لإستغلال الغابات وأخشابها، حيث جاء على لسانه:-

"والى أن أبلغ غابة الأرز وأذبح خمبابا المارد، وأمحو من على الأرض كل شرّ يمقته الإله شمش..⁽⁶⁾ وبذلك تهيأت للعراقيين قرص التقدم المادي للحياة، فنطورت آلات الإنتاج وأدواته، ونجح الإنسان في السيطرة على أعداد متزايدة من الحيوانات والنباتات عن طريقي التدجين والزراعة، وبدأ يشيع الإستفادة منها ومن منتجاتها، وهكذا وقف العراقيون على أعتاب مرحلة مهمة في تاريخ التمدن الإنساني. وتعد الأعمال الزراعية في متطلباتها ونتائجها تحولاً كبيراً في حياة الإنسان وطبيعة العلاقات، مع ما تفرزه من تصورات وأفكار، كان لها أكبر الأثر في تعيين الملامح الأساسية للشخصية العراقية على مر العصور.

فالزراعة أساساً عمل جماعي منظم، لا في إنجازه فحسب بل في نتائجه أيضاً، كما أن الزراعة تتطلب الإستقرار الذي يؤشر بداية التحضر في حياة الإنسان، والأهم من ذلك، أن الزراعة توفر في حالة تطورها، فائضاً نسبياً في المنتجات، مما يتيح فرص التخصص في الأعمال، وإنصراف البعض للقيام بأعمال أخرى كما أنها تخلق أسس التبادل السلعي في المنتجات المختلفة. وأن علاقة الزراعة بالأحوال الطبيعية كبيرة جداً، كما أن هذه الحقيقة تزداد وضوحاً في أحوال العراق الجغرافية والطبيعية لذلك إقتضت الزراعة في العراق لأعمال إنسانية كبيرة ومنظمة بدقة متناهية وصولاً الى تحقيق النتائج الأساسية المرجوة من العمل الزراعي. وأن صورة الفيضانات الدورية لأنهار العراق، كانت غير ملائمة للدورة الزراعية، حيث يقع الفيضان عادةً في موسم الحصاد، فذلك كله يعكس لنا طبيعة الحياة والنشاطات وصورة العلاقات وصولاً الى كثير من خصوصيات الفرد والجماعة في العراق القديم.⁽⁷⁾

وتبعاً لذلك فقد زاد تعاون الناس فيما بينهم، ونمت قدراتهم العقلية، وبدأت القرى الزراعية الأولى، وازدادت خبرات الناس وتطورت معالم حياتهم، حيث نستشف ذلك من بقايا دور سكناهم أو بقايا أثاثهم المنزلي. كما وضح أيضاً إلتصاق الإنسان العراقي القوي بالأرض، فمَثَل لآلهته بأشكال مستوحاة من الأرض وما يدب عليها، فكانت صورة المرأة والرجل من أقدم أشكال المعبودات، وفي ذلك تأكيد واضح على أهمية الإنسان عند العراقيين.

ولم يكن بدأً أمام الناس في أعمالهم المشتركة أيضاً من الوصول الى صيغ تنظيمية للعمل ومواقع قيادية للتخطيط والأشراف والحسم.

وبعد أن أستكمل العراقيون خطواتهم الناجحة في الإستجابة لتحديات الطبيعة في العصور الحجرية القديمة والوسيلة والحديثة، فإنهم فوجئوا بتحديات نجمت من مواقع العمل الواسع في الأنشطة الزراعية والحرفية والمبادلات، فكانت إستجابتهم رائعة في أضواء هذه التحديات عن طريق الصيغ التنظيمية للعلاقات المختلفة. ومن أروع الصور لإجلال العراقيين للتنظيم أنهم رسموه في نتاجهم الإسطوري وأجروه على لسان آلهتهم، فلإله إنكي الذي يعين بدوره من قبل الآلهة لينظم مزرعة الدنيا يبدأ بالتجول في الأرضين ويغدق ببركته على كل قطر وينظم شؤون الماء، ويملأ دجلة والفرات بالماء العذب ويعين إلهاً مشرفاً آخر، ثم ينصرف لتنظيم شؤون البحر والرياح والأمطار ويهتم بالزراعة والحرث ويرعى الحبوب في الحقل وينتقل الى المدينة ويشرف على الأجر والبناء ويعتني بالأسس والبناء، وهو يوكل لكل من هذه الأعمال إلهاً مشرفاً، وكأنه القائد المنظم الذي يوزع الأعمال وينيط مسؤولياتها الى موظفين.⁽⁸⁾ وبذلك فكل شئى يعيشه العراقيون منظم، لذلك كانوا مع التنظيم الدقيق لكل شؤون حياتهم الخاصة والعامة.

يعد عصر الوركاء ويرجع تاريخه لحوالي 3500 سنة ق. م. من الأدوار المهمة في تاريخ التطور الحضاري للعراق بوجه خاص، لأن هذا العصر شهد إبتكار الكتابة بمراحلها الأولى والتي تعرف بالمرحلة الصورية والتي تطورت عنها لاحقاً الكتابة المسمارية العراقية القديمة. وأن إبتكار الكتابة في هذا العصر أتاح أمام العراقيين إختراق أسوار الصمت التاريخية التي بقيت صامدة لفترات زمنية طويلة بوجه الكثير من الأمم والشعوب.

والأهم في إبتكار الكتابة، هو إمكانية نقل الخزين من تجارب وأفكار الماضي الى فترات لاحقة، لتصبح خطوات السابقين أساساً صالحاً للأعمال المتطورة في المستقبل.

وبعد أن تطورت الكتابة الى الحد الذي أمكن معها تسجيل جوانب النشاطات الإنسانية المختلفة، بدأت العهود التاريخية أي التدوينية في رحلة الإنسان، وبذلك توفرت للباحثين سبل البحث والتقصي الدقيقين في أحوال الناس وشؤونهم المختلفة، بالإستناد الى مخلفاتهم الأثرية والى العديد من النصوص المسمارية لكل مرحلة ودور من مراحل وأدوار التاريخ والحضارة لبلاد وادي الرافدين.

إن عناصر الحياة الأساسية التي أمكن التعرف عليها في ضوء المخلفات الأثرية من فترات عصور ما قبل التاريخ لم تنقطع أو تتغير، وإنما تشكل الإستمرارية وتطور أبرز سماتها هذا فضلاً عن أن الوثائق المدونة أخذت تملأ الفجوات وتزيد في التفاصيل، وهي الأمور التي كان متعذراً التعرف عليها بموجب البيانات الأثرية المادية فقط. وعليه يشعر الباحث أنه يستند الى أرضية صلبة من مستلزمات البحث بتوفر الوثائق المادية والمدونة ليعمل الى رسم صورة واضحة للأحداث وتفصيلها تقرب من الواقع كثيراً.

إن إتساع حجم وعدد القرى الزراعية، وظهور بدايات المدن في العراق القديم، تعد من السمات البارزة للعصور التاريخية. حيث أخذت هذه المدن والقرى تتمركز في الأقسام الفيضية الرسوبية لجنوبي العراق وتحدث بعضها من المراكز السياسية والحضارية المزدهرة في الألف الثالث ق. م، مثل الوركاء ونقر وأور وأريدو وسپار ولگش وكيش وغيرها. وكان

الأساس الإقتصادي لنمو وازدهار هذه المدن يتمثل بالزراعة الإروائية،⁽⁹⁾ وعمداً نؤكد على الزراعة الإروائية، التي تستحيل السكنى والزراعة في جنوبي العراق بدونها، فإنما نقصد الإشارة الى خصائص أساسية في الأعمال الزراعية الإروائية، ومن أبرزها العمل الجماعي والتنظيم وتطور تقنية الري، والأهم من ذلك الوعي الإنساني، وأهمية تحقيق هذه الخصائص، فضبط المياه وتنظيمها فيما نعرفه بالري، يعني الخير والازدهار، والذي يمكنه أن يتحول في حالة تداعيه وإنهدامه الى خطر وإحداث الأضرار. وبسبب أهمية هذه القيم في حياة العراقيين، فإنها جرت أمثالاً على ألسنتهم ودونوها في أدبياتهم، ونذكر منها:-

- 1- "الشعب بدون ملك (مثل) الغنم بلا راعي"
- 2- "الناس بدون إداري (مثل) المياه بدون مراقب قنواة"
- 3- "العمال بدون مشرف (مثلهم) مثل الحقل بدون فلاح"
- 4- "البيت بدون راعي (مثل) المرأة بلا زوج".⁽¹⁰⁾

وللتعبير عن أهمية المعرفة العلمية ساقوا الأمثال الآتية:-

- 1- "الجرح بدون طبيب (مثل) الجائع بدون طعام".⁽¹¹⁾
- 2- "هل يمكن (للمرأة) أن تحمل دون إتصال، وهل يمكن أن تسمن دون الأكل".⁽¹²⁾
- 3- "فمي (معرفتي)، يجعلني معروفاً بين الرجال".⁽¹³⁾

ومن الأمثال التي تكشف عن أهمية الجماعة، والأقربون منهم على وجه الخصوص، ومن ذلك المثالين الآتيين:-

- 1- "كلما إستمرت النعماء تنهمر عليك من إلهك، فأعطي لأخيك وأختك وعائلتك والأقربين إليك، وبذلك فإن الثروة ستبقى معك ولا تذهب الى الآخرين"
- 2- "اللحم هو اللحم، والدم هو الدم، والحليف هو الحليف، ولكن الغريب هو بالتأكيد غريب!!"⁽¹⁴⁾

كما تعني الزراعة الإروانية مزيداً من تشابك المصالح وحاجة ملحة لأشكال وصيغ العلاقات والتنظيم المتألفة مع الحاجات المستجدة سواء كانت في حالات حفر الأنهار وكرها سنوياً أو تقوية السداد عند الفيضان، وتقاسم كميات المياه في فترة الصيهود، وقد تبرز هذه الأمور مشكلات في حدود المستفيدين من النهر الواحد وقد تصطم مع مصالح ورغبات المستفيدين من قناة أخرى. ويعني ذلك بالضرورة الى جانب الرغبة الشديدة لتنظيم الأعمال وحسن إدارتها،⁽¹⁵⁾ توفير أسس الحماية من إحتتمالات تجاوز الآخرين، وبذلك دفعت الضرورات الى صيغ تنظيمية أكثر تطوراً فيما يمكن أن نستكشفه من بدايات الإدارة السياسية لدويلات المدن في هذه الفترة.

وعكس العراقيون روعة إنجازهم في قصصهم "الإسطورية" فلم يرضخ كلكامش لمصائب الحياة وإمتدادها، وهو في سعيه للخلود، إنما يرمز لسعي العراقيين الدؤوب لبلوغ المستحيل وتحقيق أرفع الدرجات في مثل الحياة الإنسانية.

وتعكس لنا الفقرات الآتية المقتبسة عن ملحمة كلكامش كيف يكون الطريق الى تحقيق المنجزات صعباً وشانكاً ومحفوفاً بالمخاطر، لكن سعي الإنسان البطولي أوصله في النهاية الى الغاية اللازوردية، التي هي رمز الحياة السعيدة والخير والسلام الذي ينشده العراقيون:-

"لا يوجد إنسان يستطيع ذلك يا كلكلامش، لم يعبر أحد من البشر مسالك الجبال حيث يعم الظلام في داخلها مسافة أربع وعشرون ساعة والظلام حالك ولا يوجد نور"

ونقرأ في جواب كلكلامش على تحذير العفريت له ذروة الإصرار الإنساني:-

"عزمت على أن أذهب ولو بالحزن والألم وفي القرّ والحر وفي المسرّات والبكاء!"

وبعد مسيرة محاطة بالمخاطر وسط الظلام الحالك دون أن ينتابه شعور بالخوف أو الندم لفعلته يتحقق له النصر بالإنجاز العظيم:-

"وبعد أن قطع أربع وعشرون ساعة عمّ النور وأبصر أمامه أشجاراً تحمل الأحجار الكريمة فوجد الأشجار التي أثمارها العقيق، ووجد الأشجار التي تحمل اللازورد، فما أبها مرآها"⁽¹⁶⁾.

فما أروع التحدي والإصرار لبلوغ أرفع المنجزات. ومن المؤشرات الإقتصادية التي حرّكت نشاط العراقيين ورسمت بالتالي أبعاد تأريخهم وحضارتهم ذلك التوجه التجاري الواسع الذي حفزه النقص الملحوظ في عديد من مواد البناء الأساسية في طبيعة العراق، مثل الأخشاب والحجارة كما حفزهم هذا النقص في المواد الأساسية الى قوة الإبتكار لتلبية متطلبات الحياة، فقد طوروا صناعة اللبن (الأجر الطيني المجفف بالشمس) الى صناعة الأجر والطابوق المشوي بالأفران، حيث

توفرت لهم بذلك مادة بناء صلبة ملائمة لأحوال العراق المناخية، كما أنهم طوروا تقنية البناء لتعويض النقص الموجود من الأخشاب، فكانت أقدم الأقبية المستندة في بنائها لفكرة عقد الطابوق (العقادة) من المبتكرات العراقية الأولى وهي التي قادت تدريجياً لأبتكار القوس والقبة. وتكشف لنا الأعمال الأثرية عن دور العمل في صقل القيم الإنسانية وتحديد مثلها العالية، فإن الخلود الذي سعى إليه كلكامش لم يتوقع تحقيقه عن طريق العبث وإنما من خلال العمل الهادف أو المبتكر، فيأخذ كلكامش فأسه ويذهب الى الغابة:-

"إنحدر الى الغابة وأقتطع منها مائة وعشرين مردياً، طول كل منها ستون ذراعاً وأطليها بالقيرو غلف أعقابها بالمعدن وأحملها إلي". فنفذ كلكامش ما طلبه منه الملاح.⁽¹⁷⁾

ولعل المثل الآتي يعطينا الدليل القوي والمرجو من العراقيين في تلك الحقبة والعصور اللاحقة والذي يبين مدى التزامهم وإعتادهم بقوة أسلحتهم الشخصية وجيوشهم الجبارة:-

"الأعداء سوف لن يغادروا بوابة المدينة التي أسلحتها ضعيفة".⁽¹⁸⁾

وتتجلى قيمة العمل عند العراقيين في أبهى صورها من الإطلالة الرمزية لهذا النص الذي ينقل مجرى حوار بين الفضة والبرنز:-

"إذا ما حلّ زمن البرد لن تستطيع أن تهئى منجلاً لقطع السنابل، إذن فلن يأبه الإنسان لك".⁽¹⁹⁾

وعليه فلم يؤخذ العراقيون بالمظاهر البراقة، وإنما تعاملوا مع جوهر الشيء ونتائجه الإيجابية ومقدار نفعه.

أما بقية المواد الأولية، فقد حرصوا على توفيرها عن طريق التجارة... والمبادلات السلعية مع مناطق توفر هذه المواد، ونمتك من الأدلة الأثرية ما يؤكد قيام العلاقات التجارية بين أقدم القرى الزراعية في العراق وبين مناطق توفر الحجر الأوبسيدي بالقرب من بحيرة وان في أرمينيا، ومع مناطق توفر الأصداغ في الخليج العربي. وقد تطورت خبرات العراقيين في مجال المبادلات سريعاً، وساعد على تشجيع ذلك توفر طرق يسيرة للاتصالات، وهي النهران وفروعهما في الداخل وسواحل الخليج العربي الملائمة لحركة الملاحة القديمة في الخارج. كما شكّل موقع العراق وليونة حدوده الطبيعية مع المناطق المجاورة عاملاً مشجعاً على ازدهار التجارة والاتصالات. لذلك نقرأ في نصوص الألف الثالث ق. م. عن رحلات واسعة قام بها العراقيون جنوب غابات الأرز في لبنان وإلى مواطن الفضة في جبال طوروس وإلى مواطن الحجارة والمعادن في جبال زاغروس ولورستان وعمان، وإلى توفير مواد أخرى عن طريق دلمون (البحرين) وعمان واليمن في الخليج العربي، والمتاجرة مع وادي السند وأفغانستان...⁽²⁰⁾

وبموجب هذه النشاطات الإقتصادية الواسعة، نمت المدن وتوسعت وازداد حجم السكان بشكل ملحوظ، وأزدهرت معالم الحياة المادية من صناعات حرفية وعمارية وفنون، كما عكست لنا النصوص المسمارية من هذه الفترة عن تقدم كبير في مدارك الإنسان ووعيه وتنظيماته وعلاقاته.⁽²¹⁾

تمثل حكومة الشورى أو "اليمقراطية المبكرة" أقدم صورة للحكومات في تاريخ الإنسان العراقي، وكان المجلسان، الذي يضم الأول منه مجموعة من شبيبة وعلية القوم من كبار السن ويضم المجلس الثاني مجموعة الشباب المحاربين في دولة المدينة، والمجلسان يساعدان الملك أو الحاكم في إدارة شؤون البلاد، ومع ذلك بقي الإطار الديني يحيط بإجراءات ومواقف الحكام والزعماء. وبقي الملك أو الحاكم في تاريخ العراق القديم ممثلاً أو نائباً للإدارة الإلهية في شؤون الحكم والإدارة، ويرد صراحة على لسان أكثر من ملك، ومنهم حمورابي في مقدمة قوانينه، ما يؤكد ذلك، وإن الملك ينفذ أوامر وتعليمات الآلهة عامة وإله المدينة الرئيس، إله مردوخ، إله بابل بوجه خاص.⁽²²⁾

لم يكن الحكم في بلاد وادي الرافدين غايه بحد ذاته، وإنما وسيله سعى من خلالها الحكام لتعميق التضامن والتكافل الإجتماعي، ولا نقصد من وراء ذلك تنزيه الحكام من الرغبات الشخصية، ولكن المهم في سياقات تصرفاتهم أنهم قصدوا الإرتقاء وحسن العلاقة مع الناس من خلال الأعمال الهادفة التي تخدم المجتمع، ومصداق ذلك في موقف گلگامش الرفض لنصائح صاحبة الحانة التي دعتة للعزوف عن سعيه للخلود بقولها:-

"أما أنت يا گلگامش فليكن كرشك مملوئاً على الدوام وكن فرحاً مبهجاً نهار مساء وأقم الأفراح في كل يوم وأرقص وألعب مساء نهار وأجعل ثيابك نظيفة زاهية..."

وهي على العموم مواقف ذاتية تبلور فلسفة "الأنا" الأنانية، التي رفضها گلگامش بتأكيد سعيه لتحقيق مُثل وغايات إنسانية نبيلة، فيتحمل مشاق الغوص من أجل الحصول على النبات البحري، سر الخلود، وبعد أن يحصل عليه، تستأثر في نفسه مكامن الإنسانية الحقة فيقول:-

"يا أورشنابي إن هذا النبات نبات عجيب يستطيع المرء أن يطيل به حياته، لأحمله معي الى أوروک، الحمى والسور وأشرك معي الناس ليأكلوه وسيكون إسمه، يعود الشيخ الى صباه، وأنا سأكله في آخر أيامي حتى يعود شبابي".⁽²³⁾

وتعد أعمال گلگامش هذه من أرفع المواقف الإنسانية التي تحلى بها قائد أو حاكم في تاريخ البشر، فهو يؤكد بموقفه هذا أنه يستمد قوته من قوة الناس أو الرعية، فيسعى لتحقيق الخير والرفاهية لهم أولاً، لأنه يقدر بصورة صحيحة أن رفاهيته وخيره من خير ورفاهية الناس، كل الناس، الشعب.

وعلى الرغم من إستمرار نظام الوراثة في الحكم في العراق القديم، فإن الفكر الديني لم ينص على ذلك صراحة، وأن معظم النصوص التي تطرقت الى الملوك لم تذكر أسماء أبائهم إلا في النادر.⁽²⁴⁾ وأن الملكية والملك من إختيارات الآلهة، كما ذهب بعض الحكام للإدعاء بأنهم من أبناء الآلهة، فنقرأ في بعض النصوص الآتي: "الإله سين هو الذي صنعني" أو "نخرساگ خالقتي" ويصف شيلمنصر الأول (القرن الثالث عشر م.) نفسه كونه "البذرة الخالدة" أو كما يصف توكتي نورتا الأول (1208-1244) نفسه بأنه "بذرة السيادة منذ القدم، من دون كل الناس، إصطفاه الإله إنليل". ويضيف سرجون الآشوري الى ألقابه بأنه "بذرة مدينة آشور، مدينة

الحكمة" أو "نبع (الإله) آشور وبذرة الملكية".⁽²⁵⁾ وكان بعض الملوك يضيفون الى البعض من ألقاب الآلهة لأنفسهم، أو كونهم ينتسبون الى ملوك مشهورين سابقين لعهودهم، فهذا أورنمو يقول بأنه "من والدين الإهين منحوني قدري المتسامي، أنا أورنمو، الروح الحامية لبلاد سومر وأكد، أخو كلكامش العظيم، ابن الإلهة ننسون، وبذرة الزعامة أنا".⁽²⁶⁾

ويضيفي ملوك آخرون على أنفسهم مزايا عديدة أخرى يقصدون من ورائها إبراز كفاءتهم القيادية، وكونهم محاطين برعاية إلهية وأنهم أنسب الناس لإدارة الدولة وحماية المجتمع. يقول الملك لبت عشتار (القرن الثامن عشر ق. م.) في مقدمة قانونه أنه "البذرة الحقة من الرحم أنا، لبت عشتار ابن إله إنليل.⁽²⁷⁾ فالملك هو كما يصف شولكي نفسه (القرن الحادي والعشرين ق. م.) "البطل الذي أنجبته الإلهة ننسون ذو النظرة الحادة كالأسد، الفهد المرعب، الذي تربي على الحليب الدسم، الثور ذو القرون المتينة، الشبل القوي الذي ولد لأسد...". وبجانب هذه الصفات المميزة فهو أيضاً "الراعي العادل، الراعي المخلص...".⁽²⁸⁾

وعليه، فبجانب المزايا العالية التي ينفرد بها الملك، فإنه الراعي الحريص والمخلص في عمله.

ومن بين النصوص المتميزة التي تكشف عن العلاقة بين القائد وبين الشعب، مجموعة من الوصايا موجهة للقائد، وكأنها ترسم أمامنا السلوك المثالي الذي إعتاد عليه ملوك وقادة العراق القديم. وعلى الرغم من كل الخصائص والمميزات التي كشفتها لنا النصوص السابقة لكن سلطاته تبقى أسيرة العلاقة الجيدة مع الناس والتي تحكمها مجموعة القيم والمثل

الإجتماعية التي كان الملوك يحافظون على سلامة تطبيقها
ومن هذه الوصايا الآتي:-

"إذا لم يحرص الملك على تطبيق العدالة، سيتعرض شعبه الى
الويلات وأرضه الى الضياع"
"إذا لم يحرص على تطبيق العدالة، فسيغير ألأله أيا قدره،
وسوف لا يمنع المخربين من التعرض له"
"إذا لم يشاور الملك نبلاءه، فستكون حياته قصيرة"
"أذا لم يستشر مستشاريه، فستثور البلاد ضده"
"إذا تصرف خطأ، فستتبدل الأوضاع في بلاده".⁽²⁹⁾

ويواصل النص تأكيده على الملك بحماية حقوق المواطنين
وبخاصة من الضرائب الجائرة، وأعمال القسر والسخرة،
والتهريب بملكاتهم.⁽³⁰⁾ والحرص على الممتلكات الشخصية
بلغت الى حد تثبيتها كوصية من الوصايا الهامة التي يعتني
الملك بحمايتها. وتعزز نصوص الحكمة العراقية القديمة إهتمام
العراقيين بملكاتهم الخاصة والمثال الآتي دليل على ما ذهبنا
إليه:-

"إذا حفظت أموالي في مخزن فقد يسرق، ولكن اذا بعثرتها
فمن يعيدها الي".⁽³¹⁾

ومقابل هذه المواقف، يتوجب على الناس أن يحرصوا على
إتباع قائدهم والمثول لأوامره والأعتراف بسلطانه. ويتكشف
لنا ذلك من وصف إمتيازات القائد المستمدة من قوة ومكانة
ألأله أنو سيد ألألهة وكبيرها:-

"جعلوا له منصة أميرية،

ولا مرتبة فوق مرتبتك، وكلمتك هي الأمرة، فهي كلمة الإله أنو، أو امرك من اليوم فصاعداً لن تبذل. ولك أن ترفع أو تخفض حين تشاء. وكل ما تنطق به يتحقق ولن يذهب لفظك سدى" (32).

ويواصل النص ذكر صلاحيات الملك القائد، فنقرأ ما يلي:-

"لقد وهبناك الملك والسلطان على كل شيء، فأجلس في مجعنا، ولتكن حكمتك هي العليا. لا فلّ سلاحك، ولتضرب به أعدائك، إمنح نسمة الحياة أسياداً أولوك ثقتهم. أما إذا إعتنق (الملك) إله الشر، فأنزعه عنه حياته" (33).

وهكذا يتحقق الإنسجام بين الحقوق والواجبات للقائد في العراق القديم والراجح أن حقوقه يستمدها من قيمة الخدمات الجليلة التي يجب عليه توفيرها للمواطنين، ونستشهد في ختام حديثنا عن دور القائد في حياة العراقيين من نص مقدمة قانون الملك حمورابي الذي يرد فيه:-

"عندئذٍ دعاني الآلهة أنو وإنليل لتهيئة الرخاء للشعب، أنا حمورابي، الأمير المطيع، خائف الإله؛ لإقامة العدل في البلاد، وتحطيم الأشرار والفاستدين، لكي لا يؤذي القوي الضعيف. وأطلع أنا كالشمس فوق ذوي الرؤوس السود وأثير البلاد" (34).

ولا بد لنا من توضيح هذا المصطلح الرائع، ذوي الرؤوس السود (في اللغة الأكديّة صلمت ققادي)، الذي يعبر عن الرافديين كلهم ودون تمييز بين عرق أو ديانة أو حتى طبقة ما

من طبقات المجتمع. ولا أخالني مبالغاً عندما أقول بأن المصطلح المتداول من قبل الكتّاب قبل ظهور الإسلام أو بعده، أرض السواد، إلا توارث لما ذهب إليه الملك حمورابي وغيره من الملوك الرافديين قبله وبعده، وسمة عدم التمييز هذه، متوارثة حتى يومنا هذا على الرغم من كل التخريجات العرقية أو الدينية التي ما أنفك يحاول الغزاة تمريرها على البعض من سكنة هذه الأرض المعطاء.

العراق بلد زراعي، وتعتمد الزراعة فيه على الري المنظم. وقوام الزراعة أساساً النهران العظيمان، دجلة والفرات، اللذان يهيآن في خصائصهما نوعاً من الوحدة الطبيعية لهذا البلد، هذا إضافة الى كونهما يمثلان طرق المواصلات الرئيسية التي اعتمدت في التنقل والتجارة في تاريخ العراق القديم مع خصائص العراق الجغرافية والطبيعية وأسس إقتصاده الزراعي ونشاطاته التجارية الواسعة. ولفس الأسباب أيضاً، فقد شهد العراق خلال ستمائة سنة من فجر تاريخه السياسي (3000-2400 ق.م) حالة من التمزق والإحتراب والخلافات الحادة بين الوحدات السياسية المتعددة التي كانت تغطي مساحة العراق الجغرافية عامة، والقسم الجنوبي الذي يعرف ببلاد سومر بوجه خاص. وتركت هذه الأوضاع أثرها السلبي على مسيرة التقدم وهددت أمن البلاد، لذلك كانت بطولة الملك سرجون الأكدي لتوحيد العراق، فلمّ شمل الوحدات السياسية المتفرقة في كيان سياسي كبير قوى موحد الخطوات المنسجمة مع الضرورات التاريخية وبصرف النظر عن كل ما تحقق للعراق بفضل الوحدة السياسية ومركزية الحكم، فإن من أبرز مظاهر العهد الجديد رفع العمل الإجتماعي الى بؤر تنظيمية متطورة. ونقل الأعمال المشتركة المنظمة من نطاق الدوائر الصغيرة التي كانت تمثلها الولايات المتفرقة، الى نطاق الدائرة

الإجتماعية الكبيرة التي تمثل مساحة العراق الجغرافية الكاملة، وفي ذلك توافق تام بين الخصائص الطبيعية للبلاد وبين الخصائص السياسية والإجتماعية.

ولم يقتصر التنظيم على الشؤون السياسية، بل تناول شؤون الإدارة والعلاقات، وأنتشر الموظفون كلاً في حقل إختصاصه يباشر الأعمال الموكلة إليه، لا بل ويراقب تنفيذ الإلتزامات، وأصبحت الأمور مخطط لها، وبخاصة في شؤون الزراعة والري والتجارة وإقامة جيش دائم لحماية المنجزات ودرئ الأخطار التي ما إنفك الغزاة القيام بها.

إن قيمة التنظيم راسخة في ضمير الفرد وأبناء المجتمع العراقي، لأنها تتألف مع معطيات الحياة وضرورات البيئة الجغرافية، فأى تهاون أو تقصير أو تأخير أو تأجيل، أو إنعدام التنسيق والفردية فيما له علاقة بالزراعة والري، قد تسبب أضراراً فادحة يزيد حجمها عن التصور.

فكّرِي الأنهار سنوياً وتقوية السداد، وتهيئة الأرض الزراعية، بمواعيدها الثابتة، كانت من الأمور التقليدية لدى المواطن العراقي القديم والى الوقت الحاضر. وأن أي تأخير في الحصاد أو تأجيله قد يتسبب في ضياع جهود موسم زراعي بكامله، وما ينجم عن ذلك من أضرار كبيرة.

ولهذا السبب أيضاً وضع الملك حمورابي قواعد صارمة تغذى بحكم القانون الذي أصدره بخصوص الأعمال الزراعية وشؤون الري المتعلقة بها.⁽³⁵⁾

وقبل زمن حمورابي بمدة طويلة، وضع خبير زراعة عراقي قديم جدولاً يبين فيه الأعمال اللازم تنفيذها في الحقل من حرث

وعزق وسقي وبذار وما الى ذلك، بموجب تسلسل يراعى فيه الوقت الدقيق أيضاً، وأنه يحذر من أي تقصير في جوانب العمل المطلوب لأنه سيؤدي الى نتائج غير مرضية.⁽³⁶⁾

ومما يقترن بأهمية الزراعة في حياة العراقيين، ما نقرأه في قصة خطوبة الإلهة عشتار، حيث تقدم إليها فلاح وراعي، ففضل الفلاح وتقول بشأنه:-

"ذلك الفلاح الذي يزرع الخضار ذلك الفلاح الذي يزرع القمح والشعير".⁽³⁷⁾

وبما أن الأعمال الزراعية هي أساس الإقتصاد العراقي القديم، وكانت هذه الأعمال تشهد مشاركة الغالبية العظمى من أفراد المجتمع، لذلك نستطيع أن نستنتج القيم الإجتماعية التي عكستها الممارسات العملية لشؤون الزراعة والري، وفي مقدمتها التنظيم والتعاون والتنسيق والعمل المشترك، وكانت الإطارات المتقدمة لهذه العلاقات تسير بخطى متقدمة في ظل القيادات السياسية الراجحة، كما كان الحال في زمن سرجون الأكدي وحمورابي. وتنسحب نظرة العراقيين الى الأعمال الزراعية من نظرتهم الى الطبيعة، فقد كانت الطبيعة في نظر العراقيين قوى عملاقة تتلاعب بمقدراتهم، ولا أدل على ذلك من الفيضان. وتجربة الطبيعة بمظاهرها المختلفة هيأت الحالة الذهنية لرسم فكرة الكون عندهم. فهم لم يعلقوا أبداً إبقاعات الكون الرائعة، فأروا فيها النظام لا الفوضى، ولكن هذا النظام الكوني كان يتضمن حشداً من الإرادات الفردية المتنازعة وبالتالي الملقى بإحتمالات الفوضى. لذلك نظر العراقيون الى النظام الكوني كشئى تحقق عن طريق جمع الأرادات الكونية الفردية. وجاء تعبيره العملي بموجب فهمه للكون في صورة

الجمع والتوحيد بين الإيرادات، أي في صورة الأنظمة الاجتماعية، كنظام العائلة والجماعة، وبوجه أخص الدولة، أي أن العراقي حقق نظمه الحياتية بموجب فهمه لنظم الكون.⁽³⁸⁾ وازدادت أهمية الزراعة في خلق أسس الإقتصاد المتطورة وإيجاد أسس التنظيم ووصولاً الى إزدهار الحضارة.⁽³⁹⁾

ولكن الزراعة لم يكن بمقدورها تغطية كافة الحاجات المادية لأبناء المجتمع العراقي، وبخاصة في المراحل الحضارية المتقدمة، لذلك كان ميل العراقيين للإبتكار والإختراع وتطوير مستلزمات الحياة كبيراً جداً. فإنهم عمدوا الى تطويع كثير من المواد لتأخذ أشكالاً تتناسب والحاجات المختلفة، كما أنهم إبتكروا وسائل تقنية عديدة، استطاعوا بواسطتها من تحقيق مستويات متقدمة في الزراعة والصناعة والبناء والعمارة، وأكثر من ذلك، فإنهم جابوا البلدان وسافروا الى مناطق متعددة وصولاً توفير مستلزمات البناء الحضاري، وجلبوا من هذه الأماكن الأخشاب الجيدة والحجارة الصلدة والكريمة والمعادن الصلبة والنفيسة، وكثيراً من المواد الأخرى. ونظراً لممارستهم المبادلات السلعية منذ فترات مبكرة من تأريخهم، فإنهم طوروا بمرور الوقت التجارة الداخلية والخارجية. وكانت الأعمال هذه مرتبطة بنظام مصرفي وقروض لأغراض التجارة، ومعاملات مالية متطورة بغية تسهيل عمليات التجارة وتطويرها. كما أنها أحييت بأنظمة وقوانين دقيقة وصارمة للحفاظ على سلامتها باعتبارها ركناً أساسياً ثانياً من أركان النظام الإقتصادي المتطور في العراق القديم. لذلك يصادف الباحث في تأريخ الحضارة العراقية القديمة أعداداً كبيرة من النصوص المنشورة التي تتعلق بشؤون التجارة ناهيك عن بنود عديدة في قانون حمورابي خصصت لهذه الأعمال.⁽⁴⁰⁾

ولم تكن الأعمال التجارية التي شهدت مشاركة قطاعات واسعة من أبناء المجتمع العراقي بمعزل عن نتائجها غير المباشرة، وهي تناقل الخبرات المتراكمة التي ساعدت على التطور السريع لعناصر الحياة والحضارة في بلاد وادي الرافدين.

ولم تكن هذه التطورات في القطاعات الاقتصادية المختلفة بمعزل عن الصيغ المتطورة للنظم السياسية، وبخاصة في شكل الدولة السياسية الموحدة. وكانت سبل التنظيم الدقيق للإدارة والعلاقات من أبرز مقومات الدولة، وتعد مجموعة القوانين الذي يعد قانون حمورابي من أكملها، الصورة الواضحة لمدى رسوخ النظام في حياة العراقيين، كما نستطيع في ضوء هذه القوانين وكثير من المعاملات القانونية الأخرى كعقود البيع والزواج والإرث والإيجار والقروض وغيرها، إن تتابع نمو أحوال الناس وأعمالهم وحقوقهم وواجباتهم وعلاقاتهم الخاصة والعامة وما إلى ذلك من شؤون الناس فرادى وجماعات. كما تعكس هذه القوانين عن متابعة يفتة لفهم عميق لشؤون الدولة والمجتمع من قبل القيادات السياسية التي كانت تتمحور حول شخصية الملك. لذلك لم يكن الملك في تاريخ العراق القديم صورة الحق الإلهي المطلق ولا نموذج السلطات القسرية التي عرفتها بعض المجتمعات القديمة، وإنما كان مثال الرجل الورع المحب للناس والراعي لمصالح الفقراء والأرامل واليتامى، كما تبرزه القوانين أحياناً سيفاً مسلطاً على رقاب الأجهزة الإدارية والقضائية والتنفيذية، وبخاصة عندما تسيئ هذه الأجهزة أو أفرادها إلى الصلاحيات الممنوحة لهم. ولم يتردد أبسط الناس من رفع شكواه إلى حمورابي شخصياً الذي كان يولي هذه الأمور عنايته الفائقة، ولدينا الأمثلة الكثيرة من الرسائل الموجهة إلى حمورابي والتي كانت إدارته المشهورة تعنى بها، وكيف أنه نصر المظلومين واقتص من

الظالمين حتى لو كانوا حكماً للولايات والمدن التابعة لدولته المترامية الأطراف.

وفي ظل هذه الأوضاع المستتبة تزدهر الحياة بثتى موضوعاتها وبخاصة في جانب الفكر والأدب، وتمكن الباحثون من جمع الآلاف من النصوص المسمارية التي تعالج موضوعاتها شؤون العلاقات والأخلاق والقيم الإجتماعية وترسم بموجبها تصورات العراقيين لنموذج المجتمع الفاضل والطرق المؤدية الى تحقيقه، ونشير بهذا الخصوص الى ملحمة گلگامش التي تعد نموذجاً متقدماً من أدب بلاد وادي الرافدين، والتي ترمز موضوعاتها الى القيم الجمالية ذات الطابع الإنساني الشامل.

وبالإمكان أيضاً تتبع الشروط الإجتماعية والإقتصادية والأخلاقية لبنية العائلة العراقية القديمة، باعتبارها خلية رئيسية في بناء المجتمع العراقي، وإن مجموع القيم السائدة في حدود الخلية الواحدة يمكنها أن تكشف لنا عن القيم الإجتماعية العامة في المجتمع، مثلما نجد إنعكاسها في سلوك الأفراد بما يمكن أن نسميه بالقيم الشخصية، وذلك على أساس القاعدة العلمية التي تسحب خصائص الكل على الجزء أو المجموع على الأفراد.

فالعائلة العراقية القديمة عائلة أبوية، أي يبرز فيها دور الأب كراع ومسؤول يتحمل التبعات مثلما له حقوق على بقية أفراد العائلة، ولكن هذه السلطة الأبوية في العائلة لم تصل الى حدود مسخ شخصية الطرف الثاني الأساس في العائلة، وهي الأم (الزوجة)، حيث أنها كانت مع الإقرار بسيادة الرجل، تحتل

مكانة إجتماعية وأحياناً إقتصادية، مما يؤدي الى إبراز دورها الفاعل في العائلة، ومثل ذلك في المجتمع.

وكان الزواج ينفذ بموجب عقد قانوني يكون ملزماً في بنوده للطرفين (الزوجين) ويقترن تصديق العقد بشهادة الشهود وأحياناً الكاتب الرسمي هو الذي يحرر العقد. أما الحقوق والواجبات الخاصة بطرفي العقد، فكانت تستقي مقوماتها من العرف العام لفترات طويلة، حتى بلغت مرحلة التدوين القانوني في زمن الملك حمورابي الذي حددها في عدد يبلغ السبعين من مواد قانونه الشهير، وتتناول هذه المواد شؤون العلاقات الشخصية بحكم الزواج والنتائج المترتبة عليها بشيئ من التفصيل.

ومما تجدر الإشارة إليه أن القانون الرافدي أقرّ بمبدأ الزوجة الواحدة كأساس للعلاقات الزوجية، مع منح الرجل حق التسري بالإماء، ومنهن اللواتي تهديهن الزوجة لبعلها. كما وقف القانون موقفاً متشدداً من أمر طلاق الزوجة المريضة، فمنع الرجل من تطليقها وألزمه بوجوب رعايتها والسهر على صحتها. وتشكل هذه المبادئ في بناء الأسرة المناخ الصالح لتربية الأولاد وشعورهم بالإعتزاز وعلو الهمة وقوة الشخصية، وما الى ذلك من صفات إنعكس تأثيرها في السلوك الإجتماعي العام للعراقيين القدماء. فنقرأ في رقية عراقية على لسان أحد الأشخاص ما يلي:

"أنا السماء، لن تستطيع النيل مني، أنا الأرض، لم تستطع سحري".⁽⁴¹⁾

وكان الأبناء ملزمين باحترام وطاعة الوالدين، وتبلغ عقوبة المتطاولين منهم على حقوق الوالدين، الطرد من العائلة وحرمانهم من الإرث أو إيقاع عقوبات بدنية بهم.

والتفت القانون العراقي القديم الى ما يحتمل أن تفرزه علاقات التسري بالإماء من ولادات، وإحتمالات خطر هؤلاء مستقبلاً على المجتمع، لذلك قرر القانون بأن ابن الأمة من الرجل الحر يكون حراً، وأنه يكسب هذه الحرية لأمه الأمة أيضاً بحدود معينة، حيث يمنع القانون صاحب الأمة، أم ولد، من بيعها.

وعلى الرغم من عدم تساوي الذكور والإناث في الإرث، لكن القوانين الرافدية لم تحرم البنت من الإرث، وكان من أبرز حقوقها في ذلك الحصول على قدر من الأموال يساعدها على التزوج وتشكيل أسرة خاصة بها.

أما رعاية الأولاد فكانت تبدأ أحياناً بجلب المرضعات لهم ثم تعليمهم القراءة والكتابة أو حرفة ما وصولاً الى مرحلة يستطيع بها كل منهم تدبير شؤون نفسه وأمور حياته.⁽⁴²⁾

وهكذا لعبت مجموعة العوامل، سواء كانت في صيغ النظام السياسي أو الإداري وحتى في شخصية الحاكم، أو في طبيعة العلاقات الخاصة، على تهيئة الأجواء الصحية اللازمة لبناء المجتمع العراقي من خلال قوة شخصية الفرد وتربيته سلوكياً وإجتماعياً على المثل والقيم العالية وتحليه بالجماليات المتعارف عليها إجتماعياً، وبذلك خطت حضارة العراق القديم خطوات متميزة نحو الأمام وبلغت في مستوياتها وتقدمها أعلى الدرجات.

ومن بين ملامح السلوك الإجتماعي عند العراقيين، تبوأ الصداقة عندهم مكانة رفيعة، وهي في دلالاتها الرمزية إشارة صريحة الى العمل الجماعي، ويكشف لنا صراع وعراك گلگامش مع أنكيدو قبل أن يتعهدا على الصداقة والتعاون عن الرغبات الفردية للتسلط. ولكن المطامح الإنسانية النبيلة حرّكت مكامن الحس النبيل عند گلگامش، فغيّر مجرى سلوكه، وعقد صداقة وثيقة مع أنكيدو وإستطاع من خلالها، أي من خلال العمل المشترك من إنجاز الكثير من الأعمال الهادفة. ويبلغ الوفاء والإخلاص للصديق ذروته في قسم گلگامش بوضع نصب تذكاري لصديقه حيث قال:

"أيها الصقار والصائغ والجوهري ونحات الأحجار الكريمة،
إصنعوا لي تمثالاً لخلي، صدره من اللازورد وجسمه من
الذهب".⁽⁴³⁾

وهذه المسيرة للبطلين گلگامش والمتحضر وأنكيدو "البربري" المتوحش تساعدنا في إستقراء إمكانية العيش بسلام ووثام بين النقيضين. كما تساعدنا على تلمس فائدة الإعتداد بالنفس والحوار من أجل الوصول الى الهدف المراد تحقيقه.

وفي إعتقاد العراقيين أن الموت محتم على البشر، وعليه، فالأجدر أن يموت الإنسان خلال مسعاه لتحقيق أهداف نبيلة، وكان الموت في سوح المعارك دفاعاً عن الأرض والمبادئ والأهداف السامية، أسمى ما يصبو إليه العراقيين وعلى حد تعبير گلگامش:

"فمن يسقط في القتال يا صديقي فإنه مبارك".⁽⁴⁴⁾

ومقابل هذه القيم الأخلاقية، فإن الخيانة وعدم الوفاء كانتا من الخصائص المرفوضة، حتى لو صدرت عن أشخاص مقدسين، فتستعير ملحمة گلگامش من سلوك الإلهة عشتار رموزاً للخيانة وعدم الإخلاص وتقلب الأهواء، فنذكر ما ورد بحقها وعلى لسان گلگامش:-

"أنتِ، ما أنتِ إلا الموقد الذي تخدم ناره في البرد،
أنتِ، كالباب الخلفي لا يحفظ من ريح ولا عاصفة،
أنتِ، قصر يتحطم في داخله الأبطال،
أنتِ، قير يلوث من يحمله،
أنتِ، قربة تبلل حاملها". (45)

ومن مزايا العراقيين، التواضع، وكانت لعقيدة الموت عندهم أثر في توجيه أعمالهم للنفع العام، وعلى الرغم من أن حتمية الموت قد تشجع الميل نحو الامبالاة، ولكن شروط الحياة الأخرى جذرت مواقف الإلتزام عند العراقيين. ويخلق التواضع مبدأ المساواة الإجتماعية مع بقاء الفروق الإقتصادية. وتكشف لنا المقاطع التالية عن تحقيق القيمة الإجتماعية للإنسان بصرف النظر عن موقعه الإقتصادي أو الوظيفي:-

"متى بنينا بيتاً يدوم الى الأبد؟
متى ختمنا عقداً يدوم الى الأبد؟
وهل تبقى البغضاء في الأرض الى الأبد؟
وهل يرتفع النهر ويأتي بالفيضان على الدوام؟
وياما أعظم الشبه بين النائم والميت!
ألا تبدو عليهما هيئة الموت؟

ومن ذا الذي يستطيع أن يميز بين العبد والسيد إذا وافاهما
الأجل؟! (46)

وكان أهل الرافدين يفهمون الموت بأنه تدمير للشخصية، وما
يتبقى، للإنسان من الدنيا إلا الحياة الطيبة والخلص من
المرض، مشفوعين بحسن السمعة والأولاد. (47) وقد سحبت
هذه النظرة الإهتمام الزائد بالأعمال الدنيوية، حيث خلصوا الى
حقيقة هامة هي أن خلود الإنسان مشروط بأعماله الصالحة،
ومنها الأولاد الصالحين. وكانت الفضيلة الكبرى في حياة
العراقيين هي الطاعة، التي تبدأ بحدود البيت وصولاً الى طاعة
الملك والآلهة. والعصر الذهبي في نظر العراقيين عندما تتحقق
المثل التالية:-

"يوم يحجم المرء عن السفاهة إزاء غيره ويكرم الإبن أباه،
يوم يبين الإحترام جلياً في البلاد، ويبجل الصغير الكبير القدير،
يوم يحترم الأخ الصغير أخاه الكبير،
ويرشد الولد الأكبر الولد الأصغر،
ويتمسك الأخير بقراراته،
إسمع كلمة أمك كما تسمع كلمة إلهك،
وإحترم أخاك الأكبر، وأسمع كلمة أخيك الأكبر كما تسمع كلمة
أبيك!!" (48)

وتوجهت كل الجهود الخيرة لبناء الحياة وضمن المستقبل،
ولسان حالهم في الحكمة التالية:-

"إذا كنت مقبلاً على الموت فساكون مبذراً وإن كنت ساعيش
(طويلاً) فساكون مقتصداً!!" (49)

وتكتمل صورة العمل الجماعي المنظم البناء في صيغة العالم المنظم الذي يستحيل وجوده دون سلطة عليا، وهي السلطة التي كانت تحظى بإحترام وطاعة الناس:-

"أوامر القصر كأوامر الإله أنو، لا تتبدل، كلمة الملك حق ونطقه كنطق الإله لا يغيره شيء"⁽⁵⁰⁾ وبذلك، تكاملت حلقات البناء الإجتماعي في جوانب القيم والعلاقات والمثل والتكاتف والتنظيم.

وتبرز أيضاً في دراسة المجتمع العراقي القديم، خاصية إضافية قد لا نجدتها في مراكز حضارية قديمة أخرى مثل مصر، ألا وهي خاصية التنوع البشري أو القومي لسكانه على مر العصور، فبسبب موقع العراق المتميز، وبسبب نشاطه التجاري الواسع ورقبه الحضاري، فقد استقطبت أرض العراق شعوباً وأقواماً مختلفة، ولعل من أهم المعروفة منها بالهندو أوربية والأقوام ذات الإصول العربية والسامية، وقد كان وادي دجلة الشمالي وفروعه الرئيسية حلقات الوصل بين العراق وبين المناطق الجبلية الى الشرق والشمال من بلاد وادي الرافدين. وعلى الرغم من نجاح الجماعات الهندو أوربية في بعض الأوقات من السيطرة على مقاليد الحكم في العراق القديم، مثال ذلك سيطرة الكوتيين واللوبيين ومن بعدهم الكشيين والخوريين، ولكن المسار السليم للحكم والإدارة ولأوجه التنظيمات والعلاقات ولشعائر الديانة والطقوس المرتبطة بها، بقي محافظاً على مقوماته الأساسية، المستمدة من واقع التطور التاريخي. وعندما يعلن حمورابي في مقدمة قانونه أنه ينشر العدل والمساواة ويحمي الأراذل واليتامى، وأنه بإعماله هذه يقصد نشر إرادة الإله شمش على ذوي الرؤوس السود، أي جميع الناس دون تمييز أو تفريق، ولا

غرابة أن يترجم البعض هذا المصطلح كونه تعبير واضح عن المصطلح الحديث والمتعارف عليه في يومنا هذا، الإنسانية، بل أكثر من ذلك، فإن حمورابي شمل بقانونه الناس العاديين وكبار الموظفين، وفرض سلطان القانون على السلطة الدينية ورجالاتها، وعند ذلك، وجد الناس أنفسهم في ضوء الحقوق والواجبات الثابتة، وهكذا وفي عملية متناسقة أخذ العراقيون يوفدون شعلة عملية البناء الحضاري العام لبلاد وادي الرافدين. وعلى الرغم من فترات الإضطراب والإحتراب السياسي وفترات الإحتلال الأجنبي للعراق الذي سحب معه عدداً غير قليل من أقوام تنتمي الى أروميات مختلفة ولكن السمات الأساسية للمجتمع العراقي، ونتائج العطاء التاريخي، بقين دون تغيير يذكر، فبقيت اللغة والكتابة والديانة والطقوس، وتواصلت الأنشطة الإقتصادية مع تفاوت تاثيرها، وواصل العراقيون إنتصاقهم بالأرض بشكل يلفت الإنتباه ويثير الإعجاب وأستمرت الكثير من مقومات وعناصر حضارتهم تواجه التحديات والعواطف العائلية، ولا تزال أسماء الأشهر العراقية القديمة التي تستخدم حصراً في العراق فقط دليل ساطع على الإرتباط الوثيق بين الإنسان والأرض، ومن بين هذه أسماء هذه الأشهر شباط وآذار وتموز وآب وأيلول وتشرين وكانون.

6- العلاقات الجنسية:

ونود التطرق في ختام حديثنا الى ناحية نعتقد بأهميتها وخطورتها على صعيد العلاقات الإجتماعية، وما تفرزه من قيم إجتماعية وشخصية، وهي ناحية في البحث ينذر التطرق إليها. ولعلمنا بخصوصية هذه الدراسة وربما محدودية الإطلاع

عليها، مقابل أهميتها، نجد الفرصة سانحة لطرحها، وهي العلاقات الجنسية بين الذكر والأنثى.

كانت العلاقة بين الجنسين في العراق القديم أكثر إنسانية وأبعد ما تكون عن الإنغلاق والتقيّد، وقد لعب المجتمع الزراعي دوراً في تأصيل هذه العلاقة. كما أن معطيات العمل الزراعي الذي ينشد كثرة الأيدي العاملة دفع بالعراقيين الى الزواج المبكر الذي يجنب الفرد عن الممارسات غير الصحيحة للجنس.

وعلى الرغم من حرص العراقيين الشديد على العفة والبركة ونقاوة العلاقات الزوجية، وتعيين الحدود الصارمة لحقوق وواجبات الزوجين،⁽⁵¹⁾ لأنها تتعدى حدود العلاقات الجنسية، وتصب في إطار العلاقات الإجتماعية الواسعة، حيث تشكل العائلة التي قوامها الزوجان والأولاد أهم الخلايا الحية في المجتمع. ومع ذلك فهناك أبعاد أخرى للعلاقة بين الجنسين تتعدى حدود العائلة، فالشباب قبل الزواج، والرجل الأرمل، والرجل خلال السفر الطويل، والمحارب الذي يبتعد عن بيئته لمدة طويلة، أو الذي يقع منهم في الأسر، فإن حاجة هؤلاء الى الجنس تبقى قائمة على الرغم من عدم توفر شروط الزواج الكاملة لهم. لذلك تعامل المجتمع مع مثل هذه الحالات تعاملًا متفتحاً بغية تقليل فرص التعامل غير الصحيح مع الجنس، ولمنع حالات التآزم النفسي التي يعيش المكبوت جنسياً، فمنحت فرص التسري كصيغة للإتصال الجنسي المشروع خارج حدود الزواج،⁽⁵²⁾ وتحت إشراف سلطات خاصة وفتح مجال التسري واسعاً. ومن جانب آخر، فإن المومس أو البغي في لغة قواميسنا الحالية، لم تكن المنزلة الإجتماعية المتدنية وإنما كانت واحدة من الكاهنات أو فتيات المعبد، وكان عملها – إجتماعياً في نظرنا- من نوع الأعمال ذات الطابع الإجتماعي

بغلاف ديني طقوسي. ولم تصبح هذه المرأة بسبب عملها منبوذة إجتماعياً، بل كانت تشهد طلبات زواج منها، ولكن الأمر الوحيد الذي يحدده القانون بشأن علاقاتها الجنسية العامة هو منعها من الإنجاب لأنه سيؤدي بالعلاقة الى مستلزمات ومسؤوليات جديدة تتمثل برعاية الأولاد وحضانتهم وتربيتهم. ويبدو أن مثل هذه المرأة، كانت، بعد تزويجها، تخضع لشروط الزواج من حيث الحقوق والواجبات والتي في مقدمتها المحافظة على عفتها وشرفها إن صح التعبير، وكان التفريط بذلك يعرض المرأة المتزوجة الزانية لعقوبة الموت. وتعيين عقوبة الموت للزانية، كان يقصد من ورائه الفصل القاطع بين العلاقات الجنسية العامة، وبين العلاقات الجنسية الخاصة المسؤولة.

ولعل من الالتفاتات الإنسانية التي إنتبه إليها العراقيين، أنهم منحوا الزوجة التي يغيب عنها زوجها لمدة طويلة، بالإنقال الى بيت رجل آخر، ولكن مع حق الأول بإسترجاعها في حالة عودته، مع الأخذ بنظر الإعتبار الفصل بين الأولاد الناجمين من الزواج الثاني.

لم ينظر العراقيين الى الجنس نظرة معيبة أو متخفية أو حذرة، ونعرف عدداً ليس بالقليل من النصوص المسمارية التي تتحدث عن مواطن الفتنة والإثارة الجنسية عند الذكر والأنثى. ونظروا الى الإتصال الجنسي كأرفع مستويات المتعة، وأنه يحقق أيضاً غاية الطبيعة في البقاء وحفظ النوع، كما يحقق مطالب الناس في التكاثر. وكان واحداً من أهم الأعياد الدينية والوطنية في تاريخ العراق القديم يتمركز حول زواج طقوسي بين الآلهة نظرياً، وبين الملك بإعتباره الكاهن الأعلى وبين الكاهنة العليا، من الناحية العملية. وعرف هذا العيد بأسم عيد

رأس السنة أو ما يعرف بإحتفالات البيت المقدس، بيت آكيتو. وقد صورت مشاهد الإتصالات الجنسية المباشرة أو بما يرمز إليها، أو التهيو لها على كثير من الأعمال الفنية ومنها قوالب طينية مفخورة مثلما صورت على الأختام الإسطوانية وغيرها. وأخيراً فإن نظرة العراقيين الى الجنسين، وحاجة كل منهما الى الآخر، كانت متكافئة، فليست المرأة متعة للرجل فحسب، بل الرجل متعة للمرأة⁽⁵³⁾ ويبدو أن هذه النظرة هي سبب المساواة الجنسية بين الذكر والأنثى. ونعرف من مواد قانون حمورابي أن للمرأة، الزوجة، حق في عفاف زوجها مثلما للزوج حق في عفاف زوجته، وكان القانون في حالة ثبوت ارتكاب الزوج ما يعرض عفافه، يحكم للزوجة بالطلاق ولكن في حالة الزوج، كان يحكم عليها بالموت أو فقدانها لحرمتها وتحولها الى أمة في بيت زوجها، أي مع مساواة في الحقوق الجنسية للزوجين، فقد بقيت يد الرجل هي الأطول والأعلى في شؤون الأسرة جميعها.

7- التعددية الدينية والوحدة:-

إن البحث في تأريخ الدين والأصح أن نقول الديانات وبصيغة الجمع، قد يعود بنا الى عصور ما قبل التدوين أو قبل التأريخ وذلك إستناداً الى المخلفات الأثرية التي تشير الى أن أقدم المعابد وجد في مدينة أريدو والذي لا تزيد أبعاده عن أربعة أمتار مربعة. ولا نعرف ما كان يدور في هذا المعبد من طقوس أو مراسيم. أما اذا ما إقتربنا من بدايات التأريخ أو بعد ذلك بقليل فنستطيع تحديد مراكز للعبادة في معظم المراكز الحضارية. وفي العصور اللاحقة دون الكتابة العراقيون الكثير من المراسيم والإحتفالات والطقوس، لكننا لا نزال نفتقد الى العديد من التفاصيل، والأكثر من ذلك أننا لا نزال نجهل الكثير

عن تأريخ الديانات في تلك العصور التاريخية أو حتى في عصر محدد ساد فيه التدوين، ففي عصر سلالة أور الثالثة لدينا وثائق قد تفوق المليون وثيقة لا يوجد بينها من وثائق دينية يتعدى العشرات.

وكان المعبد يخصص لرجال الدين المتنفذين والحكام منهم هذا فضلاً عن بعض أعضاء الطبقة العليا، أما عامة الناس فلربما كانوا يكتفون بحضور بعض الإحتفالات أو بدكة تعبد في بيوتهم أو بتلك التي تبني في الساحات العامة... وعلى الرغم من ظهور ذلك خلال التنقيبات الأثرية إلا أننا نجهل الكثير عن تلك الأماكن المقدسة، سيما أن معظم الذين يتعاطون تلك العبادات كانوا لا يعرفون الكتابة والقراءة ولم يجتذبوا الكتاب الذين صبوا إهتمامهم على معيبيهم ومموليهم أي المعبد والحكام وعلوية القوم.

ومن المعروف أنه في بداية العصور التاريخية كان من الصعب جداً التحدث عن فصل المعبد أو الديانات عن الدولة وإدارتها. فالمعبد الذي وجد في مدينة أريدو وأقدم المدن العراقية الأخرى، قد يشير الى وجود متعبدين بأعداد صغيرة نظراً لصغر مساحة المعبد ذاته ولمحدودية أولئك الذين يستطيعون التعبد فيه من الحكام وعلوية القوم... ومن الممكن التصور بأن المجتمع ككل كان يقدر ذلك المكان، على الرغم من عدم دخوله، فالمجتمعات الصغيرة تحاول الإشتراك في كل شئ يخص المجتمع. وعندما توسعت المدن في عصور قبل السلالات نتج عن ذلك تطور محاولة الفصل بين الدولة والدين ونتج عن ذلك أيضاً تطور العبادات الشخصية الخاصة... وهكذا ففي هذه العصور، وإستناداً الى عدد قليل من المدونات والمخلفات الأثرية، فلقد تكوّن لكل مجموعة بشرية معبدها

الخاص ومعبودها أو معبودتها المفضل. والدليل القاطع من خلال المخلفات الأثرية يشير أولاً الى وجود معبود واحد لكل معبد... وفي العصور اللاحقة هناك إحتفالات تشير الى تجمع عدد من الآلهة في معبد إله معين... وعلى الرغم من كل ذلك فهناك معابد إحتوت على المعبود وزوجته وأولاده وحاجبه ولكن المعبود الأساس هو صاحب المعبد. وإن التعبد لنولئك الالهة في نفس المعبد شأنه شأن بعض المزارات المنتشرة في بلاد وادي الرافدين في يومنا هذا أو شأن الرجال أو النساء المقدسين لدى الطوائف المسيحية.⁽⁵⁴⁾

إن أسماء ومزايا تلك الآلهة الخاصة بالمدن الأولى غير معروفة لدينا، ولكن كلما تقدم الوقت في العصور التاريخية نرى أن المحافظة على التقاليد بقيت على ما هي عليه وربما لم تتغير. وعلى أية حال فالمسألة ليست بهذه البساطة، ففي حدود منتصف الألف الثالث قبل الميلاد نرى أن لكل مدينة إلهها الخاص بها، ولا يوجد إزدواجية إله ما في مدينة أخرى.

وكل الذي نستطيع قوله أن السومريين عبدوا الآلهة المتمثلة بالقوى الطبيعية، كالشمس، والقوة الموجودة بالحبوب، والحب، ومياه العمق الطاهرة الموجودة تحت الأرض، وكل ذلك كان يعبد على شكل آلهة تمثلت بالإله اوتو والإلهة نيسابا والإلهة إننا (عشتار) والإله إنكي. وهذا شئى إعتيادي لدى أي إنسان يسعى لإحتواء الظواهر الطبيعية المحيطة به والقادرة على مساعدته أو تدميره...

ولا توجد مجموعة بشرية أو مجتمع يستطيع الإعتماد على قوة طبيعية واحدة. فعبادة إله المياه الذي قد يأتي بالفيضان لغمر الحقول لا يفيد إذا لم تكن هناك شمس تساعد على تجفيف

الحقول والمساعدة على إنضاج الزرع ليأتي بثماره. وبإختصار فكل مجتمع أو مجموعة من الناس بحاجة الى المجموعة الأخرى، وهكذا فعلى الرغم من الإنقسامات السياسية إلا أن الوحدة الدينية والحضارية كانت الضرورة المرجوة. وهذه الوحدة يمكن أن نراها في الدين والمقومات الحضارية والمعبودات المتعددة ترتبط الواحدة منها بالأخرى وكأنهم يشكلون عشيرة أو قبيلة ما مثلهم مثل الأولمبيون الإغريق في أثناء.

ونحن نعرف أن الآلهة الرافدية رتبت على شكل ثلاثة أجيال متعاقبة وأن أسلاف تلك الآلهة ينتمون الى ستة أجيال، لكننا لا نعرف الشيء الكثير عنهم والأكثر من ذلك أن البعض منهم، ووفق ما نعرفه عنهم، لم يعبدوا في بلاد وادي الرافدين... وهذا الترتيب يحرص، لا بل ويؤكد، على أن الآلهة رتبت حسب موقع كل منها بالأهمية، فالأهم يذكر في الصدارة ثم المهم والتابعين. ومن الواضح في العصور الأولى أن الإله إنليل كان الإله الأعظم لديهم ومركز عبادته في مدينة نقر، وعلى النقيض من ذلك فنحن نعرف أيضاً أن مدينة نقر، وعلى العكس من المدن الرئيسية الأخرى، لم تتبوء المركز الأساس من الناحية السياسية في أي عصر نعرفه... ولا نزال نجهل الكثير عن بقية تنظيم هذا المجمع الإلهي وتسلسل أعضائه، وكل الذي نستطيع قوله ربما حدث مؤتمر لجميع مراكز العبادة ورتبت القائمة وفق أهمية ومكانة كل إله ومدى دوره في الطبيعة وفي حياة الناس.

وعلى الرغم من رتابة ومعقولية ما ذهبنا إليه، إلا أن بعض المراكز الحضارية المعروفة خصت بالاهين مثل الوركاء التي خصت بعبادة الإلهة إننا والإله أنو، والذي يمكن قوله بهذا

الخصوص أن المدينة تكونت من دمج مدينتين متجاورتين لتؤلف مدينة واحدة، وهذا الشيء ينطبق أيضاً على مدينتي كرسو ولگش واللتان عرفتا باسم لگش فقط.

كما توجد خاصية أخرى يمكن أن نصفها بالتناسخ، فلقد عرف بعض الآلهة بإسمين ومثال ذلك الإله أسارلوشي الذي عرف في عصور لاحقة بإسم مردوخ وبخاصة زمن الملك حمورابي. وينطبق ذلك على الإلهين ننگرسو ونورتا اللذين نعنا كليهما بأبن الإله إنليل ومركزي عبادتهما كما هو معروف مدينتي لگش ونقر، وما ينطبق على تلك الآلهة يمكن أن يعزى الى الإلهين نرگال إله العالم الأسفل وإيرا إله الطاعون.

كما تجدر الإشارة الى تبادل النفوذ أو إعتلاء أحد الآلهة لمكانة آلهة أخرى وتبوء مراكزها أو حتى وصول البعض منها الى أعلى درجات الرقي ومثل ذلك الإله أسارلوشي الذي عرف لاحقاً بإسم مردوخ والذي حرّف لقبه من ابن الإله شمش الى شمس آلهة الناس. ولقد رقيّ الى أعلى الدرجات، وهذا أيضاً ما ينطبق على الإله آشور. ونحن نعرف سبب ذلك الإرتقاء لهذين المعبودين، فمردوخ ومركز عبادته بابل، إرتقى نتيجة تبوء بابل المركز السياسي الأعلى خلال حكم الملك حمورابي، فلا يمكن أن نقول بأن بابل المركز السياسي والحضاري القائد ما لم يكن إلهها مردوخ كذلك... والشيء نفسه ينطبق على آشور الإله الأعظم لآشوريين. وما دمنا بصدد الحديث عن ترتيب أسماء الآلهة في بلاد وادي الرافدين فالآتي مقتطف عن ترتيب الرعيّل الثاني من ذلك المجمع والذي نقتصر فيه على النخبة منهم:-

- 1- أنو إله السماء وحاكم كل الآلهة.
- 2- إنليل إله الهواء والفرّاح الموجود بين السماء والأرض ويذكر في الغالب جنباً إلى جنب مع ابنه ننورتا.
- 3- ننگرسو الذي أقترن إسمه مع ننورتا وحمل نفس الصفات.
- 4- إنكي الذي عرف بإسم أيا عند الأكديين والذي غالباً ما يذكر مع الإله مردوخ.
- 5- سين إله القمر الذي يضيئ ليالي الرافديين.
- 6- شمش إله الشمس الذي كان أباً لمردوخ ومركز عبادته في سّپار في أعالي بلاد الرافدين ومدينة لارسة في بلاد سومر.⁽⁵⁵⁾
- 7- أد إله الأمطار والرياح العاتية والعواصف.
- 8- إننا والتي عرفت بإسم عشتار إلهة الحب والحرب.

وسبق وأن تحدثنا عن إتهام إله ما لمكانة آلهة أخرى، والآتي قائمة توضح كيفية إكتساب مردوخ لبعض مزايا ونعوت الآلهة:-

- | | |
|-------------------------|----------------|
| مردوخ الزرع والضرع. | 1- أوراش |
| مردوخ مياه العمق. | 2- لوگاإددا |
| مردوخ الفأس. | 3- ننورتا |
| مردوخ المعركة. | 4- نرغال |
| مردوخ فن القتال. | 5- زبابا |
| مردوخ السيادة والمشورة. | 6- إنليل |
| مردوخ الحسلبات. | 7- نابو |
| مردوخ العدالة. | 8- شمش |
| مردوخ المطر. | 9- أد |
| مردوخ الجيوش. | 10- تشپاك |
| مردوخ (السماء والسمو). | 11- العظيم أنو |

- 12- شوقاً مَوْننا مردوخ الحاويات (المخازن).
 13- [.....] مردوخ كل شيء.⁽⁵⁶⁾

واعتقد البعض من الباحثين على أن هذا النص يقدم دليلاً واضحاً على الوحدانية، ولكن ذلك مبالغ به، وكل ما نستطيع قوله أنه يمكن أن يوصف بالتفريد والذي ساد بلاد الشرق القديم أو معظمها في أقل تقدير قبل ظهور الإسلام.

وهكذا، وبإختصار يمكننا الإستنتاج أن العراقيين القدامى عبدوا آلاف من الآلهة، وكانت تلك الآلهة والمعبودات مصدر وحدة لهم، وعلى الرغم من التعدد السياسي الذي ساد البلاد في بعض الحقب التاريخية، بقيت الوحدة الدينية والحضارية دوماً مصدر من المصادر الأساسية للوحدة الوطنية. وإذا ما عرفنا بأن الديانات لعبت دوراً أساساً في حياة المجتمع العراقي، فلا غرابة أن يكون للدين عاملاً بارزاً في تكوين شخصية الفرد وفي العائلة والمجتمع على حدٍ سواء...

ألهوامش:-

- 1- H. W. F. Saggs, The Greatness That Was Babylon, London, Sidgwick and Jacson, 1966, p. 169f.
- 2- W. G. Lambert, Babylonian Wisdom Literature, Oxford, 1960, p. 277, (Abbreviated BWL.).
- 3- Saggs, op. cit., p.191ff.; For the most recent and reliable source on the Sumerian Periods, see J. N. Postgate, Early Mesopotamia, Society and Economy at the Dawn of History, Routledge, London, USA and Canada, 1994.

- 4- جوردن جايلد، ماذا حدث في التاريخ، ترجمة جورج حداد، القاهرة، 1956، ص 56 فما بعد.
- 5- BWL., p. 248.
- 6- طه باقر، ملحمة گلگامش، وزارة الثقافة والإعلام، بغداد، 1971، ص 81. للإستزادة ينظر آخر الترجمات وأوثقها في:-
- Andrew R. George, The Babylonian Gilgamesh Epic, Oxford University Press, Volumes one and two, 2003.
- 7- طه باقر، مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة، دار البيان، بغداد، 1973.
- 8- هنري فرانكفورت وآخرون، ما قبل الفلسفة، ترجمة جبرا إبراهيم جبرا، بغداد، 1960، ص 189.
- 9- P. Buringh, "Living Conditions in the Lower Mesopotamian Plain in Ancient Times", Sumer, 13, 1957, pp. 30-57.
- 10- BWL., p. 232.
- 11- op. cit., p. 249.
- 12- op. cit., p. 247.
- 13- op. cit., p. 238.
- 14- op. cit., p. 271; see also B. Alster, Studies in Sumerian Proverbs, Mesopotamia, Copenhagen Studies in Assyriology, Akademisk Forlag, Copenhagen, 1975.
- 15- G. R. Driver and Sir J. C. Miles, The Babylonian Laws, Voliums one and two, Oxford, 1968, Paragraphs, 53-56; see also, ibid., commentary, pp. 150ff.
- 16- ملحمة گلگامش، المصدر السابق، ص 110-112.
- 17- نفس المصدر، ص 119.
- 18- BWL., p. 250.
- 19- ما قبل الفلسفة، المصدر السابق، ص 195.
- 20- W. F. Leemans, Foreign Trade in the Old Babylonian Period, Leiden, 1960.
- 21- W. G. Lambert, "The Seed of Kingship" in P. Garelli, Le Palais et la Royauté Archéologie et

Civilisation 19^e Rencontre Assyriologique International, Librairie Orientaliste, Paul Geuthner S. A., Paris, 1974. pp. 427-431 and the following pages.

22- Driver et al., op. cit., The introduction to the laws.

23- ملحمة گلگامش، المصدر السابق، ص 143.

24- S. N. Kramer, "Kingship in Sumer and Akkad: The Ideal King", in Garelli, op. cit., pp. 163-176.

25- Lambert, op. cit., p. 429.

26- ibid., p. 428.

27- ibid., p. 429.

28- Kramer, op. cit., pp. 167-168.

29- BWL., p. 113.

30- BWL., p. 111.

31- BWL., p. 247.

32- ما قبل الفلسفة، مصدر سابق، ص 31.

33- نفس المصدر، ص 211.

34- نفس المصدر، ص 228.

35- Driver et al, Vol. 2, Paragraph, 53-56.

36- صموئيل نوح كريم، من ألواح سومر، ترجمة طه باقر، بغداد، 1957، ص 137.

37- ما قبل الفلسفة، مصدر سابق، ص 196.

38- نفس المصدر، ص 147-148.

39- نفس المصدر، ص 149-150.

40- Driver et al., Vol. 2, Paragraphs, L-V, pp. 100-112.

41- ما قبل الفلسفة، مصدر سابق، ص 154.

42- رضا جواد الهاشمي، نظام العائلة في العهد البابلي القديم، دار الأتلس، بغداد، 1970.

43- ملحمة گلگامش، مصدر سابق، ص 107.

44- نفس المصدر، ص 105.

45- نفس المصدر، ص 88.

46- نفس المصدر، ص 125.

47- ما قبل الفلسفة، مصدر سابق، ص 266.

48- نفس المصدر، ص 239.

49- BWL., p. 250.

50- ما قبل الفلسفة، مصدر سابق، ص 240.

51- Driver et al., Vol. 2, Paragraph, 128f.

52- G. R. Driver and Sir J. Miles, The Assyrian Laws, Oxford, 1935, Paragraphs, 40, 49 and 52.

53- Th. Jacobsen, The Treasures of Darkness: A History of Mesopotamian Religion, Yale University Press, New Haven and London, Third Printing, 1979, pp. 29-30.

54- W. G. Lambert, "The Historical Development of the Mesopotamian Pantheon: A Study in Sophisticated Polytheism" in Unity and Diversity, Ed. H. Goedicke and J. J. M. Roberts, 1975, pp. 191-200.

55- Grant Frame, "My Neighbour's God: Assur in Babylon and Marduk in Assyria", Bulletin of the Canadian Society for Mesopotamian Studies, (BCSMS), 34, Quebec, Canada, 1999, pp. 5-22.

56- Lambert, op. cit., pp.197ff.

للأمانة العلمية، نوقش الجزء الأول من هذا البحث مع المرحوم الأستاذ رضا جواد الهاشمي، الى ذكره العطرة نهدى عملنا المتواضع هذا.

ألملق الأول:

الأدوار الحضارية التي مرّ بها العراق:-

وفي ختام بحثنا هذا لا بد من تحديد وتعريف بهوية بناء الحضارة وصانعيها في العراق القديم، وهم السومريون والأكديون وغيرهم من الأقليات التي إنصهرت في بوتقة

حضارة وادي الرافدين، وذلك عبر جدولة سريعة بالأدوار الحضارية لهذا البلد المعطاء، وذلك لإحاطة القارئ الكريم غير المتخصص، لتستكمل عنده صورة ما عن الإطار التاريخي لهذا البحث.

1- عصور ما قبل التاريخ:

أولاً- العصر الحجري الأيوليثي، يقع في الدهر المعروف باسم البلايستوسين، ويعرف بعصر استخدام الأدوات الحصوية، لم يعثر عليه في اعراق ولكن وجد بعض آثاره في أقطار شمال أفريقية من الوطن العربي.

ثانياً- العصر الحجري القديم، وبدأ في منتصف الهز السابق وقدر تأريخه من حدود 500،000 والى 10،000 قبل الميلاد، وعثر على بعض بقاياها بالقرب من الفحيمي في محافظة الأنبار، وعثرت على آثاره بعثة بولونية عبر تنقيباتها ضمن حملة إنقاذ آثار حوض سد القادسية. ويقسم المتخصصون هذا الدهر إلى:

1- العصر الحجري القديم الأدنى، الذي بدوره ينقسم إلى الأدوار الآتية:

أ- الدور الأبفيلي، والذي كان يدعى سابقاً بالدور الشيلي ويقع زمنه في أوربا ضمن ما يعرف بالفترة الجليدية كنز- مندل، ولم نعثر على بقايا هذا العصر لحد الآن في بلاد وادي الرافدين. لكن بلاد النيل وأقطار شمال أفريقيا العربية شهدت ذلك العصر وعثر على بقاياها هناك. وظهرت فيه يقايا الإنسان الأطلسي.

ب- الدور الكلاكتوني، ويقع زمنه في الفترة الجليدية الثانية المعروفة بإسم مندل- رس، لم تتوصل الهيئات الأثرية الى إكتشاف أدواته في العراق.

ج- الدور الأشولي، وهو أطول أوار العصر الحجري القديم، ويمتد تأريخه بين الفترة الجليدية الثانية والثالثة، وتسمى بقاياها في شمالي أفريقيا بالأشولي الأول والثاني والثالث، وجدت بقايا هذا العصر في برده بالكه بالقرب من مدينة جمجمال.

د- الدور اللفالوازي، وتاريخه يعود الى الفترة الجليدية الثالثة، وله إرتباط بالدور المعروف بإسم المستيري الذي تلاه.

2- العصر الحجري القديم الأوسط:

وفيه دورين الأول هو نهايات العصر السابق ويعرف بإسم اللفالوازي- المستيري. والدور الثاني عرف بإسم المستيري، والذي إستمر الى الفترة الجليدية الرابعة المعروفة بإسم قيرم، وعاش فيه الإنسان القديم المعروف بإسم نياندرتال، ووجدت بقايا للإنسان هذا في العديد من بلدان العالم، والذي يميز هذا الإنسان في بلاد وادي الرافدين أنه وجدت عوائل كاملة له في الطبقة الثانية من كهف شانيدار شمال العراق ومعه أدوات تمثل هذا الدور. وعرف في شمالي أفريقيا بالدور المستيري- العتيري.

3- العصر الحجري القديم الأعلى:

ويعود تأريخه في أوربا الى الجزء الأخير من دهر اللايستوسين الذي يقع ضمن الفترة الجليدية الرابعة أي في

حدود 50,000 والى 40,000 قبل القت الحاضر. ساد في هذا العصر ظهور الإنسان الحديث أو ما يعرف بالإنسان العاقل. وسميت الأدوات التي عثر عليها شمال العراق باسم الأدوات البرادوستية نسبة الى جبال برادوست، وتعود اليه الطبقة المؤشرة بلحرف ب في كهف شانيدر كما عثر على أدوات أخرى من هذا العصر في كهفي زرزي وهزار ميرد عند جبال السليمانية. ويسمى هذا الدور في شمال أفريقيا بالأدوار القفصية والوهرانية، أما في أوربا فعرف بالأدوار الأوركنيشي والسلوتري والمكلايني وتمثل بفن الرسوم على ولجهاث الكهوف. ويعرف هذا الدور بمرحلة الصيد وجمع القوت التي سبقت تعلم الإنسان الزراعة وتدجين الحيوان.

ثالثاً- العصر الحجري الوسيط:

غالباً ما يطلق عليه اسم دور الأدوات الحجرية الدقيقة، ويبدء تاريخه بعيد العصر الجليدي الرابع والأخير. وسمي من قبل المتخصصين بالآثار العراقية بدور زرزي، نسبة الى كهف زرزي قرب السليمانية. كما وجدت آلاته وأدواته الحجرية في الطبقة الموسومة بالحرف سي من كهف شانيدار، ومن مواقعه العراقية الأخرى موقع زاوي چمي على الزاب الأعلى بالقرب من شانيدار وفي پالي كوره وملفعات وكريم شهر. ويدعى هذا الدور في بلاد الشام بالدور النطوفي، وبه ظهرت البوادر الأولى لتدجين الحيوان وبداية الزراعة. إن معرفة الإنسان للزراعة يعد إنقلاباً حضارياً خطيراً في حياة الإنسان لما نتج عنه من تحولات إقتصادية وإجتماعية بالنسبة للمجتمعات البشرية القديمة، إذ أنه أدى الى ضمان شبة أكيد لمصدر الغذاء عن طريق إنتاجه بدلاً من التنقل في سبيل جمعه، كما قاد الى

الإستقرار ثم ظهور القرى الزراعية الأولى، والتي تزايد عددها بمرور الزمن فغدت قرى وحواضر زراعية كبيرة.

رابعاً- العصر الحجري الحديث:

وتمتد بدايات تأريخه الى الألف الثامن قبل الميلاد ويقسمه الباحثون الى الأدوار التالية:-

1- بداية العصر الحجري الحديث أو نهايات العصر الحجري الوسيط. وتم العثور على بقاياها في الطبقتين الموسومتين أي وبي في كهف شانيدار وفي زاوي چمي وكريم شهر وملفغات وگرد چاي.

2- دور ما قبل الفخار، وعثر على بقايا هذا الدور في كل من، الطبقة السادسة من موقع جرمو والطبقات العليا من زاوي چمي وفي الطبقات 14 والى الطبقة السادسة من تل شمشارة.

3- دور الفخار، وعثر المنقبون على بقايا هذا العصر الأولى في موقع جرمو في الطبقات واحد الى الطبقة الخامسة وفي الطبقات الأسفل من موقع تل حسونة قرب الموصل وفي الطبقات السفلى من موقع تل الصوان قرب سامراء.

خامساً- العصر الحجري- المعدني:

يمتد تأريخ هذا العصر من حدود 7000 قبل الميلاد والى 3500 قبل الميلاد، ويقسمه الباحثون الى الأدوار الآتية:-

أ- العصر الحجري المعدني القديم، ويتمثل بالدور الحضاري المعروف بإسم:

1- تل حسونة، وعثر على مخلفاته في تل الصوان وفي تل شمشارة ومنطقة تل أعفر وغيرها.

2- دور سامراء، ويتمثل بالمواقع المذكورة أعلاه وفي مناطق أخرى من أعالي بلاد وادي الرافدين.

ب- العصر الحجري - المعدني الوسيط:

ويمكن تقسيم هذا العصر الى الأدوار الآتية:

1- دور حلف، نسبة الى تل خلف شمال شرق سوريا:

أ- دور حلف القديم، وعثر على بقاياها فيما قبل الطبقة العاشرة في الأربجية.

ب- حلف الوسيط، وعثر على بقاياها في الطبقات العاشرة والى السابعة في الأربجية ومواقع أخرى في محافظة نينوى وفي محافظة ديالى.

ج- حلف متأخر، وعثر على مخلفاته في الطبقة السادسة من موقع الأربجية وفي العديد من مواقع محافظات صلاح الدين وديالى وصولاً الى أطراف بغداد جنوباً وأربيل شمالاً وفي مواقع سورية وإيرانية وربما إمتد الى الخليج العربي.

2- دور العبيد الأول، ويتمثل في بقايا الطبقات 19 والى 15 في مدينة أريدو كما عثر على بقاياها شمال العراق.

3- دور العبيد الثاني، ويتمثل بما عثر عليه من مخلفات في تل عبادة وتل رأس العمية قرب مدينة كيش وفخاريات تل حاج محمد في الجنوب.

ج- العصر الحجري - المعدني المتأخر:

1- العبيد القديم، ويعرف بدور العبيد الثالث.

2- العبيد المتأخر، ويعرف بإسم العبيد الرابع.

3- دور الوركاء، ويقسم الى:-

أ- الوركاء القديم، ويتمثل ببقايا الطبقات الأثرية 7-12 من موقع مدينة الوركاء.

ب- الوركاء المتوسط، وتمثله الطبقتين الخامسة والسادسة.

سادساً- العصر الشببيه بالكتابي، ويعرف بعصر بدايات التأريخ، وإمتد هذا العصر بين قرابة 2800-3500 قبل الميلاد ويقسمه الباحثون الى:-

1- دور الوركاء الأخير، وتمثله الطبقات الخامسة والرابعة بإدوارها الموسومت بالحروف اللاتينية أي و بي و سي.

2- دور جمدة نصر، ويؤرخ في حدود 2900-3000 قبل الميلاد.

3- عصر السلالات الأول، ويمتد تأريخه في حدود 2900 والى 2800 قبل الميلاد.

2- العصور التأريخية

من المتعارف عليه لدى الباحثين في تاريخ العراق القديم التنبيه عن أن التواريخ التي قمنا بإدراجها ما هي إلا تواريخ تقديرية إعتاد الباحثون إعتمادها. يقسم هذا العصر الى:-

1- عصر السلالات، ويعرف بإسم عصر دول المدن والذي ينحصر تاريخه بين 2800-2370 قبل الميلاد. وينقسم الى:

أ- عصر السلالات الثاني، ومن أبرز ملوكه مسيلم، ويتمثل بسلالة كيش الأولى وسلالة الوركاء الأولى، أما وثائقه فجانتنا من تل فاره. ويمتد تاريخه بين 2800-2600 قبل الميلاد.

ب- عصر السلالات الثالث، من أبرز الآثار التي عثر عليها في هذا الدور، المقبرة الملكية في مدينة أور، ومن الملوك المعروفين، مس كلام دوك و آ كلام دوك وگلگامش. ومن السلالات، سلالة لگش الأولى وملكها أور نانسه وعثر على وثائق تمثل هذا الدور من مدينة أوما وغيرها من دول المدن، وسلالة أور الأولى ومن ملوكها ميس أنيدا و لوگال زاگيزي، وينحصر تاريخها بين 2600-2370 قبل الميلاد.

2- العصر الأكدي، وينحصر تاريخه بين 2370-2230 قبل الميلاد وهو عصر ظهور أول إمبراطورية في العالم، ومن ملوكه الذين خلفوا بصماتهم على مجمل تاريخ الشرق القديم وتاريخ العراق، سرجون الأكدي وحفيده نرام سين.

3- دور الغزو الگوتي المدمر والذي نهبت به البلاد، وعلى الرغم من ذلك بقيت في الحكم سلالة لگش الثانية التي عرفت بإسم أحد ملوكها المشهورين، الملك گوديا، وفي نهاياته، أو قد يكون معاصراً له ظهر الملك الشهير أورو إنم گينا والذي كان يعرف بإسم أورو كا گينا، والذي يعد المشرع الأول الذي ضمن

حقوق الفقراء واليتامى والأرامل. وتاريخ هذا الدور ينحصر بين 2230-2120 قبل الميلاد، كما أنه عرف من قبل الكتّاب العراقيين وهم يسخرون من القدر الذي حل بالعراق بقولهم المشهور **"من هو الملك ومن هو غير الملك!!!!"**.

4- عصر سلالة أور الثالثة، ويمكن أن نطلق على هذا العصر إسم عصر التوثيق، للكمية الهائلة من الوثائق التي عثر عليها في مدن أوما ولگش وگرسو وأور وغيرها وإشتهر هذا العصر أيضاً بسعة تجارة البلاد وبتنظيم الأعمال الزراعية والحرفية ورأس مال العمل أي الطبقة العاملة... إنتهى هذا الدور بالغزو العيلامي المدمر للمراكز الحضارية التي كتبت في ذكراها المراثي الكثيرة والتي أسست هذا الضرب من فنون الشعر أي الرثاء. ومن ملوك هذا العصر، أور نمو وشولگي، ويعزى إليهما صدور أول قانون منظم، وأمار سين وشو سين وأبي سين، ويمتد تاريخه بين 2112-2004 قبل الميلاد.

5- العصر البابلي القديم، وكنتيجة للغزو العيلامي تمزقت البلاد وحكمت من قبل مشايخ ودويلات عديدة يشير إليها الكاتب العراقي القديم ساخراً، في أقدم الوثائق التاريخية الموسومة، قائمة الملوك، بقوله: **"من هو الملك ومن هو غير الملك!!"**. وعلى الرغم من كل ذلك قامت سلالات كثيرة من أشهرها:-

أ- سلالة لارسا، ومن أشهر ملوكها نبلانم، وتاريخها 2025-1763 ق. م.

ب- سلالة إيسن، مؤسسها، إشبلي إرا، ومن مشاهير ملوكها لبث عشتار وهو الذي أصدر قانوناً عرف بإسمه. ويمتد تاريخها بين 1794-2017 ق. م.

ج- سلالة أشنونا، من أهم ملوكها المعروفين ببيلاما ودادوشا الذي عرف بقانونه ومن خلال مسلته الحربية. وتاريخ هذه السلالة يمتد بين 1761-2000 ق. م.

د- السلالة الآشورية القديمة، ومن أشهر ملوكها، شمشي أدد وحكمت من حدود 1760-2000 ق. م.

هـ- السلالة البابلية الأولى (1500-2000 ق. م.)، يعد سومو أبوم المؤسس لهذه السلالة وأشهر ملوكها الملك السادس، حمورابي صاحب القانون المعروف والذي حذا حذو الملوك العظام من أمثال سرجون فأعاد توحيد البلاد وأشاع العدل ورد الظلم عن العراقيين كل العراقيين ذوي الرؤوس السود. وآخر ملك من هذه السلالة هو سميو إيلونا الذي إنتهى حكمه سنة 1595 ق. م. وذلك عقب الغزو الحثي والكشي الذي دمر البلاد مرة أخرى.

ولا بد من التنويه على أن هناك سلالات أخرى مثل سلالة مرآد وسلالة دير والسلالة المعروفة باسم سلالة القطر البحري وغيرها، لكننا لا نزال نجهل الكثير عنها وذلك لعدم التنقيبات في تلك المراكز أو لشحتها.

6- العصر الكشي، إنهارت السلطة في بابل إثر الهجوم الهجري الذي قام به الحثيون الذين سرعان ما إنسحبوا نتيجة حدوث إنقلاب في عاصمتهم، وسنحت الفرصة لإحتلال العراق من قبل الكشيين الذين حاولوا ذلك أبان حكم الملك سمسويلونا ابن حمورابي لكنه إستطاع صدهم. وعلى الرغم من ذلك بقيت فلولهم في أطراف ديالى وعلى إمتداد أواسط نهر الفرات، من مدينة عنه والى مشارف الفلوجة. ومن الملفت للنظر أن الكشيين إنصهروا مع بقية مكونات الشعب العراقي، ولا نعرف

عنهم الشيء الكثير لتبنيهم المكونات الحضارية الرافدية ومحاولتهم السعي لتأصيل أنفسهم كعراقيين، والحق يقال أنهم دافعوا عن العراق ضد الغزاة، هذا فضلاً عن أنهم حكموا بإسم سلالة بابل الثالثة بين 1157-1595 ق. م. وما قلناه بحق الكشيين ينطبق على الخوريين الذين إمتد نفوذهم ليشمل محافظة التأميم، أربحة (أو الإسم الذي يعرف حتى الآن، عرفة، والذي تعرف به إحدى المحلات في مدينة كركوك)، كما سيطروا على نينوى في الفترة التي ضعف بها الآشوريون، هذا فضلاً عن سيطرتهم على أجزاء من محافظة الحسكة في سوريا. ولقد تبناوا الحضارة العراقية بما فيها اللغة الأكديّة وعرفت لهجتهم بإسم أحد المدن المعروفة بمدينة نوزي (حالياً تعرف بإسم يورغان تبه، قرب مدينة عرفة)، وأمدتنا مدينة نوزي بالآلاف من الوثائق المكتوبة بلهجة نوزي الأكديّة. ومن الواجب التنويه أن عهود الإحتلال وعلى إختلاف تواريخها، شهدت تحولاً ملحوظاً في النتاج الأدبي والفكري والعلمي الذي إنكب عليه الكتبة العراقيين لإيجاد منفذ للخلاص من نير المحتلين.

7- العصر البابلي الوسيط، وبضمنه العصر الكشي والسلالات البابلية من الرابعة وحتى السلالة العاشرة. ويقع تأريخه بين 1500-627 ق. م.

8- العصر البابلي الحديث، وغالباً ما يوسم هذا العصر بإسم الملك الشهير نبوخذنصر المعروف في الكتابات الإسلامية بإسم نبو بختي إنصر، والذي ريم يكون ترجمة للإسم الأكدي نبو كودوري أوصر، أي نابو قدري أنصر. ومن أبرز ملوك هذا العصر نبو بولاصر ونبوخذنصر ونبوناند، الملك المقترى عليه

من قبل الكتابات التوراتية والأخمينية. ويؤرخ لهذا العصر بين 627-539 ق. م.

9- العصور التاريخية في بلاد آشور، مرت بلاد آشور بنفس بعضور قبل التاريخ والعصور السومرية والأكدية التي وحدت العراق ووسعته ليشمل أقاليم عربية وأجنبية. ويمكن تقسيم العصور تلك:-

1- عصور الوحدة التي امتدت الى حدود 2000 ق. م.

2- العصر الآشوري القديم، ومن مشاهير ملوكه إيريشوم الأول وسرجون الأول ومن مآثرهم تأسيس المراكز التجارية في أواسط تركية في كول تبه أو كانش القديمة وغيرها من المراكز. كما إشتهر ملك آخر إسمه شمشي أدد الذي إمتد نفوذه الى البلاد السورية وحكم بين 1813-1771 ق. م.

3- العصر الآشوري الوسيط، ومن ملوكه آشورأوبلظ الأول وشلمنصر الأول وتوكلتي نورتا الأول وأشورناصربال الأول. إمتد حكم الآشوريون في هذا العصر بين 1500-911 ق. م.

4- العصر الآشوري الحديث، وهو العصر الموسوم بعصر الإمبراطوريات والذي كان تأريخه بين 911-605 ق. م. وقسمه الباحثون الى:-

أ- الإمبراطورية الأولى، ومن ملوكها أدد نيراري الثاني وتوكلتي نورتا الثاني وأشورناصربال الثاني وشلمنصر الثالث وتجلات بلاصر الثالث، وإمتد تأريخ هذه الإمبراطورية بين 911-745 ق. م.

ب- الإمبراطورية الثانية، ومن ملوكها شلمنصر الخامس والسلالة السرجونية الشهيرة والتي كان أعظم ملوكها سرجون الثاني وسنحاريب وأسرحدون وأشورباني بال صاحب أولى المكتبات الشهيرة وآخر ملوكها آشور أوبلظ. وانتهى حكم هذه الإمبراطورية على يد الغزاة الميديين سنة 612 ق. م. وتلاشى ذكرها في حدود 605 ق. م. في آخر معاقلها في مدينة عنه وفي مدينة حرّان.

10- عصر الإحتلال الأخميني، ومن ملوكه كورش الثاني ودارا الأول وآخر ملوكهم دارا الثالث، ويؤرخ العصر بين 539-331 ق. م.

11- عصر الإحتلال الإغريقي، ويعرف بعصر الإسكندر المقدوني والعصر السلوقي ومن حكام هذا العصر الإسكندر الكبير وخلفاءه فيليب المقدوني والإسكندر الرابع، ويحدد تاريخه بين 331-126 ق. م.

12- عصر الإحتلال الفرثي، وعرف ايضاً بإسم العصر الأرشاقي كما عرف في المصادر العربية القديمة بإسم عصر ملوك الطوائف، وشمل تاريخهم السنين 126 قبل الميلاد وإمتد حتى سنة 227 ميلادية.

13- عصر الإحتلال الساساني، ومن ملوك هذا العصر أردشير وشابور الأول والثاني وآخر ملوكه يزيدجرد الثالث الذي قوّض عهده بالفتح الإسلامي في حدود 651 ميلادية.

14- الأدوار العربية الإسلامية، وغالباً ما يقسمه الباحثون الى:-

1- عهد الرسول والخلفاء الراشدين، ويؤرخ بين 600-661 م.

2- الأمويون، وحكموا بين 661-750 م.

3- العباسيون، دام حكمهم بين 750-1258 م. ويقسمه الباحثون الى خمسة أدوار، وأول خليفة لهم هو أبو العباس السفاح وآخرهم المستعصم الذي هزمه الغزاة المغول وقاندهم هولاء سنة 1258 م.

15- أدوار الإحتلال المغولية والتركمانية والفارسية، ومن ذلك:-

1- الإلخانيون، 1258-1338 م.

2- الجلائريون، 1338-1411 م.

3- القره قوينلو، 1411-1468 م.

4 الآق قوينلو، 1469-1508 م.

5- الصفويون، 1508-1523 م.

6- الصفويون، وحكموا مرة أخرى بين 1529-1534 م.

7- الأتراك العثمانيون، 1534-1917 م.

16- عصر الإحتلال البريطاني.

17- عصر المملكة العراقية،

18- ثورة تموز 1958 م.

19- عهود متقلبة.

20- عصر الإحتلال الأمريكي في التاسع من نيسان 2003 م.
والتي يمكن وصفها بما جاء على لسان الكُتّاب الرافديين
القدامى؛ "من هو الملك ومن هو غير الملك!!"، وهذا حال
لساننا اليوم الذي يردد القول المعهود، ما أشبه الليلة
بالبارحة!!!

الملحق الثاني:-

يمثل هذا الملحق مجموعة من الصور الأثرية التي تعبر عن
بعض العصور السابقة الذكر، هذا فضلاً عن تعبيرها عما ورد
في هذا البحث.